

حوار مع الشاعر اليميني

عبدالله البردوني

أجرى الحوار : د. حامد طاهر

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يقول عن نفسه مرة إنه « كاهن الحرف »، ومرة أخرى « صعلوك الحروف » والواقع أن عبدالله البردوني — الذي بدأ كتابة الشعر في سنة ١٩٤٨ ، ونشر ديوانه الأول سنة ١٩٦٢ .. حتى صارت له الآن سبعة دواوين، كلها جيد وأصيل — قد أصبح يمثل ظاهرة شعرية متفردة في الوطن العربي المعاصر .. فالطاقة الشعرية التي ينطوي عليها هذا الشاعر قادرة — في رأبي — على بعث الشعر العربي من جديد، كما أن الأداة التعبيرية التي يجيد استخدامها في اطار الشكل التقليدي أوضح دليل على

امكانية. «التطوير من الداخل» في بناء القصيدة العربية. وبالإضافة الى هذا وذلك، فإنه يمتلك التواصل الجيد، الذي يشبه الحضور المسرحي، مع جمهوره.

هزني كثيراً شعر البردوني. ودفعني هذا الإعجاب الى أن أنتهز فرصة وجوده في القاهرة في شهر أكتوبر الماضي، للمشاركة في ذكرى شوقي وحافظ — لكي أجري معه الحوار التالي:

■ لو سألتك عن رحلتك التعليمية، فعلى أي المعالم الرئيسية يمكنك أن تتوقف؟

— نشأت في أسرة يمنية فقيرة تشتغل بفلاحة الأرض. وإذا كان للوراثة دخل فإن والدتي من أسرة شاعرة — على الطريقة العامة القبلية في اليمن. والواقع أنني كنت أحس أن لدي استعداداً خاصاً لقول الشعر منذ البداية. دخلت كتّاب القرية (البردون: بفتح الباء والراء وتشديد الدال) وكان يسمى معلّماً: حيث حفظت النصف الأخير من القرآن الكريم، لأن مثل هذا التعليم كانوا يختارونه ليتجاوب مع فهم التلاميذ، حيث أن البداية بالسور القصيرة يسهل حفظ السور الطوال: ثم انتقلت إلى معلّمة القرية المجاورة، لأن اختي تزوجت بها. فأكملت فيها حفظ القرآن. وكانت الدراسة فيها أكثر انتظاماً من معلّمة البردّون. وعندما انتقل معلّمي (الشيخ محمد الصوفي) إلى مدينة ذمار، نقلني معه متحملاً مسؤولية تعليمي، دون أن يتحمل مسؤولية عيشي.

■ ماذا فعلت؟

— تعلمت مستغنياً عن العيش، وقد كنت أحصل عليه عن طريق زملائي في المدرسة. ثم انتقلت الى جامع يسمى «المدرسة الشمسية» وفيه قطعت شوطاً في دراسة النحو والفقه وأصول الفقه وعلوم البلاغة والصرف وأصول الدين.

بعد ذلك، انتقلت إلى صنعاء، حيث التحقت فيها بدار العلوم سنة ١٩٤٩، وقد تخرجت من دار العلوم سنة ١٩٥١، أي بعد سنتين فقط، لأنني لم أدخلها من شعبها الأولى، وإنما من الشعب المتقدمة التي تكمل تعليم ذمار.

■ هل كنت تلميذاً مجتهداً؟

— نعم. لأن تعليم مدرسة ذمار كان مطابقاً لمنهج دار العلوم في صنعاء. وقد تجاوبت كثيراً مع علومها. وبالأخص علوم البلاغة، التي أصغيت من شواهد الشعرية إلى الشعر العربي، وإلى سره التعبيري، حتى أنني لم أكن أقف عند اللفظة، وإنما حاولت أن أشم لكل حرف لونها، وأرى له شكلاً.

■ بالمناسبة، من هم أحب الشعراء القدامى إلى قلبك؟

— ابوتعام والمتنبّي والمعري والشريف الرضي.. ومازلت أقرأ لهم حتى الآن.

■ لكنني ألاحظ في شعرك روحاً قوياً من سخرية بشار بن برد؟

— لم يكن بشار ساخرًا، وإنما هجاء... وإذا كانت له سخرية فهي سخرية الزنادقة، وذلك على العكس من المعري، الذي يمكن أن يقال إنه حزين حزن الحكماء!

■ ألا تربطك صفة العمى خاصة بأمثال المعري وبشار؟

— صفة العمى من الأمور التي تجعل العميان متشابهين، أو محبين لبعضهم. ومع ذلك فأنا أحب المتنبّي كالمعري، وأحب الشريف الرضي كبشار (لكنني قد أصرح لك بأنني أحب طه حسين أكثر من العقاد) ومع ذلك فإن الأعمى أكثر ميلاً إلى المبصرين، لأنهم يملكون ما يفقد. والإنسان يحن إلى غير الموجود لديه.

■ هل تعتقد ان لصفة العمى أثراً في النبوغ؟

— كما أن صفة العمى ليست بالضرورة رابطة مشتركة. كذلك فإن صفة البصر ليست سبباً في النبوغ. فما كل المبصرين: دانتي أو المتنبي أو الجاحظ أو شكسبير. كذلك المكفوفون، ماكلهم طه حسين أو أبا العلاء أو هوميروس. فليس العمى هو الذي يرشح للنبوغ، بدليل أن أغلب العميان من الضائعين، وأقلهم هم الذين حققوا بروزاً في الأدب أو الدين أو في قراءة القرآن. أما الأغلبية فقد أصابهم العمى بالعجز كإحدى المعوقات الكبرى.

■ لكن ألا يقف العمى عائقاً في تكوين الصورة الشعرية لديك؟

— أشرت من قبل إلى حنين الإنسان إلى مايفقد .. إنه هو الذي يجعل الأعمى يتصور الألوان والأشكال بحساسية مفرطة .. لهذا جعل المكفوفون من الألوان رموزاً وتوريثات وقرائن على عوالم فنية، كما نجد في قول المعري:

لبلثي هذي عروس من الزنج عليها قلاند من جمان

أو كما نجد في قول بشار: <http://Archivebeta.Sakhi>

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

فالألوان عند الشاعر الكفيف تصور له العالم الخارجي، وما يحفل به من صور. ومن هنا يحسن تصور الكفيف للمشاهد الخارجية أكثر مما تبدو عليه للمبصرين.

■ كيف ترى الواقع الشعري المعاصر في اليمن؟

— من أظهر الأمور ظواهر الأدب .. فهي الوحيدة التي تعلن عن نفسها يومياً. لأن الأدب بدون كواليس، وبدون تحايلات سياسية. لهذا يمكن معرفة الواقع الشعري في اليمن وغيره إذا توافرت المتابعة. ولعل واقع الشعر اليمني لا يختلف عن واقع الشعر في مصر ولبنان والعراق. فكل المدارس

الشعرية متواكبة بعضها الى جوار بعض، الشكل الكلاسيكي الى جانب الشكل الجديد والشكل الجديد الى جانب الشكل الكلاسيكي .. وأنا أفرق هنا بين القديم والكلاسيكي لأن هناك الكلاسيكية القديمة التي هي أقرب الى التقليد، والكلاسيكية الجديدة التي هي أقرب إلى الجديد. أما القديم فهو المحاكاة التامة للقديم. ولاشك أن الانتهاج فيها قليل جداً، نتيجة ظهور الشعر الذي ينتزع لغته ومضامينه من لغة الناس ومن قضاياهم.

بدأ الشعر اليمني في الخمسينات بتحديث القصيدة العمودية، عند الزبيري، والحضبراني، والشامي، ولطفي جعفر أمان .. ثم انتقل إلى العمودي المتطور الذي يعتمد على القافية المتراوحة.

ومن بداية الستينات الى السبعينات، ظهرت القصيدة الجديدة (الشعر الحر) التي تعتمد على التفعيلة بدل البحر، وعلى السطر بدل البيت، وعلى النبرة بدل القافية. وتنفرد الشعر اليمني بغياب الصراع بين الأشكال الشعرية. لأن التطور عم الشعر كله، وعلى أي شكل .. فكان هناك تأخ بين المدارس الشعرية بشرط أن تكون القصيدة شعراً في أي شكل. لأن لكل شعر جمالياته الخاصة به، سواء كان «بيتاً» أو «جديداً».

ومن بداية السبعينات إلى الآن، استجذبت القصيدة النثرية، وكانت امتداداً للقصيدة الجديدة، التي جاءت بدورها من الشعر العمودي المتطور.

■ لكن هل ترى اختلافاً كبيراً بين واقع الشعر العربي في اليمن، وواقعه في الوطن العربي ككل؟

— واقع الشعر في اليمن لا يختلف كثيراً عن واقع الشعر في سائر الأقطار العربية ذات الثقافات والجامعات والتاريخ الطويل في الشعر وتعدد مدارس.

لكن ربما كان واقع الشعر في اليمن أقرب إلى واقع الشعر في العراق ومصر. ففي الوقت الذي ظهر فيه السياب ونازك الملائكة والبياتي في

العراق، وعبد الصبور وحجازي في مصر، وعلي الجندي وعلي كنعان في سوريا، وخليل حاوي وأدونيس في لبنان .. ظهر في اليمن لطفي جعفر أمان، وإبراهيم صادق، وعلي عبدالعزيز نصر.

وكان الشعراء في كل الأقطار امتداداً لشعراء الثلاثينات والأربعينات، الذين بدأوا التحديث .. لكي يأتي بعدهم الجيل الذي غرق في الحداثة.

فالشعر هو أكثر الجوانب تألقاً. وما فيه من نكسات أو قلة خصوبة فإنما يرجع إلى ما في الواقع العربي من نكسات سياسية، واضطراب اجتماعي وتفاوت عنيف بين الغنى الفاحش، والتأخر الفاحش. ففي بعض المناطق لا نجد توافقاً بين التقدم المادي والتخلف الثقافي .. بما في ذلك ثقافة الشعر.

■ ألا تعتقد اذن بأن هناك أزمة شعرية عامة في الوقت الحاضر؟

— لا أجد مبرراً للدعوى أن هناك أزمة شعرية، كما يقول أكثر الكتاب. هناك في اليمن شعر لأن هناك قراء، والذي يُخصب مناخ الشعر هو وجود القارئ الذي أصبح من مستوى الشاعر ثقافياً. ولا شك ان القراء متفاوتون كالشعراء: هناك القارئ العاشق للشعر، وهناك القارئ الذي يميل الى الشعر. فالذين يعشقون الشعر يتذوقونه ويعرفون تطور مسيرته. والذين يميلون إليه يحبون قراءته، والذين يتخصصون بأعمال أخرى غير أدبية يحبون سماعه على الأقل. فتجد في اليمن مثلاً أن الطبيب والمهندس والفلاح يجتمعون على حب الشعر. لأن الشعر في الأصل فن سماعي كالغناء.

■ هل من الأفضل أن ينشد الشعر العربي ليُسمع .. أم يكتب ليقرأ؟

— بالنسبة لغير عشاق الشعر، يكتفون بالسماع كفن اطرايبي. أما المثقفون أدبياً فلا يسمعون إلا لكي يقرأوا .. لأن السماع اطراب آتي. أما تكوين فكرة نقدية أو معرفة أدبية فهي تتطلب القراءة، وإعادة القراءة مرات ..

والشعر العربي كغيره من ألوان الشعر فن سماعي، وفن قراءة. وربما أصبح، مقروءاً لأنه كان سماعياً، بدليل أن العرب كانوا يقولون «أنشد فلان قصيدة» ولم يقولوا «كتب فلان قصيدة أو قرأ..» وهذا الفرق بين الإنشاد والقراءة هو الفرق بين الشعر والنثر، لأن قراءة الشعر غير قراءة النثر. انها دخول الى عالم الشاعر وليست مجرد معرفة مثل التي تحدث في قراءة كتاب.

■ ما رأيك في الشعر الحر؟

— لعلني قد أشرت الى الشعر الحر في جملة مدارس الشعر. ولا أراه غريباً على الأصل وانما هذه ظاهرة من ظواهر التحرر السياسي والاجتماعي. فبعد أن ناضلت الشعوب العربية وتحررت من الاستعمار والعهود الفاسدة، ظهر الشعر الحر كتعبير عن ذلك التحرر. وما كان فيه من قصور التحرر السياسي والتحرر الاجتماعي. فكما كان هناك إيهام في التحرر السياسي كانت هناك ضحالة في التحرر الشعري. وكما كان هناك سوء استغلال للحرية السياسية، كان هناك انسياق بلا بصيرة وراء الشكل حتى تسمت متابعة أحدث الأشكال «عبادة الشكل» على حد تعبير د. إحسان عباس.

ان متابعة الشكل ذاته تجعل الشعر مجرد تشكيل. لكن عندما يكون هذا التشكيل تابعاً لغنى المضمون، ونظرية المعنى، فإن المضمون يخلق حينئذ شكله من تطور مضمونه الفلسفي.

■ كيف ترى حالة النقد الأدبي .. في الوطن العربي؟

— النقد الأدبي في الوطن العربي تابع للأدب الإنشائي. وبمقدار رقي الأدب الإنشائي يرقى الأدب النقدي، لأن ازدهاره موقوف على ازدهار الأدب الإنشائي.

صحيح أن مدارس النقد متعددة بمقدار تعدد مدارس الأدب، فعندنا حتى الآن أربع مدارس نقدية: المدرسة التأثرية، والمدرسة النفسية،

والمدرسة التاريخية، والمدرسة البنيوية، وهي أحدث مدارس النقد.

وهناك فروع لهذه المدارس. كما أنها كلها امتداد لمدارس أدبية في تاريخنا. فالمدرسة التأثرية مثلاً كان لها أصول عند الجاحظ في البيان والتبيين، وعند الآمدي في الموازنة، وعند عبدالعزيز الجرجاني في الوساطة، وعند أبي هلال العسكري في الصناعتين.

إلا أن المدارس الحديثة استرغدت من المدارس الأوروبية الترتيب والمنهجية. وما كان هناك من أزمة في النقد كما يقال، فهي ترجع إلى أزمة في الأدب المنقود.

■ إذا صح أن يكون للإنسان رأي في آراء الآخرين عنه، فما رأيك في النقاد المعاصرين الذين تناولوا شعرك؟

— حتى الآن، لم أظفر بنقاد جادين، ولا بنقد جاد. وأعتقد أن كل نقد، وكل ناقد إنما يدلني على وجودي. وإن كنت أجزم بأن الكتابة النقدية كلها حتى الآن لا تغيد الشاعر إطلاقاً، قد تكون الكتابة النقدية إضافة ثقافية، وقد تكون زيادة في رصيد المعارف الأدبية. لكنني إلى الآن لم أجد ناقداً يبصر الشاعر أو يبلغ به مستوى النضج المنشود، نتيجة اختلاف الرؤية عند الشاعر كمبدع فن، وعند الناقد كمفسر لهذا الإبداع الفني.

وفي تصوري أن اغنى نقد هو دراسة الماضي الأدبي، مثل دراسة طه حسين لأبي العلاء، ودراسة محمد مندور للنقد المنهجي عند العرب، ودراسة العقاد لابن الرومي، وأبي نواس، وابن أبي ربيعة، وجميل بثينة.

أما النقاد المعاصرون الذين ينقدون شعراء معاصرين فتحلو آرائهم من أصابة، ولا تخلو كتاباتهم من لمح ذكي، ومحاولة ابداعية. لكنهم لا يفيدون الشاعر المنقود بأي شكل من الأشكال، لأنهم لا يتجاوزون التعريفات أو الأحكام العامة. وإذا استشهدوا بالنصوص فيجزئون ما يريدون، ويشركون ما لا يريدون. ومع كل ذلك، فإن البؤس في النقد يرجع الى عدم

الغنى في الأدب الإنشائي، لأن النقد الحقيقي هو ثمرة للardهار الحقيقي في الفن المنقود.

■ استمعنا في مهرجان شوقي وحافظ لبعض البحوث النقدية التي حاولت تطبيق المذهب البنيوي على شعر شوقي .. وكان حظها من الفشل محققاً. فهل توافق على تطبيق هذا المذهب على شعرك؟

— أنا لأسأل عن مذهب النقد الذي ينقدني حتى لو كان المذهب البنيوي. ولكن هذا النقد لا يتلمس الفن، وإنما يتلمس الأشكال اللغوية، والفضاء النفسي، والأركان المتعددة للأشكال اللغوية للفن. فهذا النقد لغوي أكثر منه فني أدبي. واللغة في الأدب مجرد قشرة لاتبدو حيويتها إلا بفضل ما فيها من مضمون .. كالسكرية للعناقيد، أو كالنسخ للنباتات.

■ قليل جداً من شعرائنا العرب قد تحدثوا عن حالة الابداع الشعري لديهم .. وبهذا تركوا المجال واسعاً لتخمينات الدارسين .. فهل يمكن أن تحدد لنا تلك اللحظات الابداعية التي تصاحب مولد القصائد لديك؟

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

— لاشك ان تحديد اللحظات الابداعية خارج عن التحديد. لأنها من الساعات الغيبوبة، وإنما هناك ملامح يتذكرها المرء:

قبل أن أحس ركض القصيدة في النفس، أحس فراغاً حزيناً، حتى أدخل في عراك العمل الشعري، ويخف هذا الحزن الباطن ويتحول إلى تحديق نفسي إلى الخارج، وإلى داخل الداخل. ثم يأتي دور البحث عن الكلمة المؤدية، والأكثر أداء، والعبارة الموحية .. وإذا تهيأت الأداة الطيعة للمطلع (مطلع القصيدة) أمكن مواصلتها بطريقة أسهل .. وهكذا حتى أفرغ منها. وبعد أن تصبح القصيدة في صيغتها النهائية أملها على من يكتبها، وقد أنشيء غيرها، وأكتب الاثنين معاً، وأحياناً ثلاث قصائد معاً. لأن القصيدة بعد أن تكتمل تظل في الحافظة، وأضيف إليها غيرها (ثم ثانية

وثالثة، وأحياناً رابعة وخامسة!) لأنني لأنقل القصيدة إلى الورق إلا بعد أن تكتمل صنعتها: هذا في الأغلب. وقد أنقح بعد الكتابة أحياناً، أو أضيف أبياتاً أخرى.. لكن هذا نادر. أما الغالب فإني اتعامل مع القصيدة، ثم أحفظها حتى أكتبها، ثم أظل حافظاً لها مدة طويلة، ولا أنسى إلا البيت والبيتين أو الترتيب أحياناً إذا طالت المدة بين انشاء القصيدة وكتابتها.

وأظن ان هذه ظاهرة فريدة فيما أعلم. فقد كان أبو العلاء المعري يعتمد على من يكتب له حال النظم، ومثله بشار. ولعل ضرورة العمى هي التي فرضت عليّ هذه الطريقة، لأنني أنظم الشعر في خلوتي، ولا أتمكن من الكتابة لضرورة العمى.. لهذا أوجل كتابة القصيدة حتى الفراغ منها.

■ كيف ترى كشاعر عربي معاصر قضية الالتزام في الفن؟

— لاشك أن الفن مسئولية. كما أن العلم مسئولية، كما أن الحياة كلها مسئولية. لأن الإنسان لا يولد لنفسه، ويموت لنفسه. وإنما هو مخلوق لغيره كالأضواء والروائح والألوان، فإنها خلقت لغيرها وليست لنفسها. ومن هذا القبيل، يبدو التزام الشاعر بالقضايا الكبرى.

ومن القضايا الكبرى التي رشحته لها طبيعته: مسئولية الكلمة كأمانة نفسية، وهذا ما يميز الشاعر عن غيره، لأن الشاعر لا يفرح بتوافه الأمور، وإنما يهمه رخاء العالم، وسلامة البشرية، وحرية الجميع، وانتفاعهم بالحرية. فهموم الأديب هموم إنسانية لكونه انساناً ينطوي على فنان.

■ مامدى علاقتك بالأدب الغربي، وهل يمكن أن توضح رأيك في أدبائه؟

— انني أقرأ كل ماتقع عليه يدي مترجماً من الأدب الغربي. وفي الحقيقة، لا أستطيع ان أقدم رأيي في الأدباء الغربيين مادمت أقرأهم باللغة العربية. ويمكن أن يكون لي رأي في المترجمين، لا في الذين ترجموا لهم. لأن الأدب فن تعبيري، وليس مجرد موضوع كالفلسفة والصحافة والكتب

الدراسية التي يمكن نقل مضمونها دون أن يؤثر ذلك كثيراً في أسلوبها.

■ لكن هل يمكن أن تحدد تأثرك ببعض الأسماء؟

— تأثرت كثيراً بالشاعر السيوت .. أما الكتاب، فأهمهم: سارتر، وهيمنجواي، والبرتومورافيا، وازرا باوند.

■ مادمت قد شاركت في الاحتفال بذكرى مرور خمسين سنة على وفاة شوقي وحافظ، فهل لي أن أطلب رأيك فيهما .. وفيما تبقى منهما للجيل المعاصر؟

— لاشك أن شوقي كما قيل: خاتمة القدماء وطلعة المحدثين. فلقد أعاد إلى الشعر العربي شبابه بعد أن خبا، وترنح تحت المحسنات والجناسات والتشكيلات. ولم يقف شوقي عند استعادته شباب الشعر، بل دك العيون على آفاق جديدة، وبالأخص في مسرحياته.

أما حافظ فكالرصافي والزهاوي .. كان ذاكرة شعرية يمد أسلوب القدماء بأقل التجديد على عكس شوقي الذي كان يجدد في عناصر الصورة، وفي ترتيبها، وإن كان لم يخرج هو الآخر عن إطار القدماء، إلا في بعض القصائد والموضوعات مثل وصف الطائفة في قصيدة الأربع، ووصف السيارة، ووصف الترام، وفي قصائده عن الحروب التركية — اليونانية.

كان لشوقي لمعات تجديدية، لأنه كان يولد من المولدين، ولم يكن كالمولدين الذين استولدوا تجارب القدماء .. وإنما أضاف إلى التوليد آفاقاً مختلفة وذلك يرجع إلى سببين: (أ) معرفة شوقي بنماذج هامة من الأدب المعاصر، (ب) احاطته بالثقافة العربية الإسلامية كلها.

كان شوقي على احاطة بالتاريخ الإسلامي، وبالمذاهب الدينية والفكرية، والتطورات الفلسفية، كما تدل على ذلك معارضته لابن سينا، وكما تنطوي عليه بعض قصائده من أفكار مأخوذة من كتاب «آراء أهل

المدينة الفاضلة» للفارابي . فشوقي كان يعرف التاريخ العربي والإسلامي بشعره وفلسفته ومذاهبه وحروبه وأطوار أفكاره .

أما حافظ فكان مجرد ذاكرة شعرية لا يعرف من التاريخ العربي غير الشعر، فليس في شعره لمح فلسفي مثل شوقي، أو تضمين قصة وردت في كتب الأدب العربي القديم كما نجد عند شوقي مثلاً في قوله:

شبعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتني في الركب لما أفلت يوشع، همت، فنادي، فشناها
فهذه إشارة إلى قصة يوشع مع الشمس، واستفادة من قول أبي تمام:
فوالله ما أدري أحلام نائم ألمت بنا، أم كان في الركب يوشع
وهذا ماسماه البلاغيون «إشارة إلى قصة».

ولم يكتف شوقي بالإشارة إلى القصة، وإنما كان متعمقاً في الأساطير. وفوق ذلك، كان شوقي متعمقاً في الأساطير العربية، وفي خرافات العرب كما تدل على ذلك روايته (مجنون ليلى) و(عترة) .. وكان كذلك محيطاً بالتاريخ الفرعوني كما يبدو ذلك واضحاً من قصائده التي أشار فيها إلى هذا التاريخ، وأهمها «كبار الحوادث في وادي النيل». فشوقي كان على حظ كبير من الثقافة، وأهم مسائلها. على حين يبدو حافظ مقصوراً على الشعر العربي وحده.

ومع ذلك فقد كان لشوقي بعض الغلطات الفلسفية مثل قوله:

بنيت على التوحيد وهو حقيقة نادي بها سقراط والقدماء
فلم يكن لسقراط فلسفة لاهوتية، وإنما كان هناك شيء من اللاهوت في مثل أفلاطون.

كذلك أشار شوقي إلى أن أرسطو طاليس كان من دعاة التوحيد في

قصيدته عن كتاب « الأخلاق » الذي ترجمه أحمد لطفي السيد، فهو يقول
عن أرسطو:

وغدا وراح موثقدا قبل البنية والحطيم
ولم يكن أرسطو من أهل التوحيد، وإنما كانت فلسفته حول السياسة
والأخلاق والفن. وليس لديه أي إلماح إلى التوحيد. كما نجد مثلاً في
مسألة العقل الكلي عند أفلاطون.

ومع ذلك فإن مثل هذه الغلظة الفلسفية لا تقلل من ثقافة شوقي، وإن
دلت على مجرد خلط المعارف في الذهن.

وأخيراً فقد كان كل من شوقي وحافظ من أبرز العلامات في شعرنا
المعاصر من منتصف القرن التاسع عشر حتى مطلع الثلاثينات. وما يزال
لهما آثار وأصداء، وبالأخص عند ذريتهما الأدبية من أمثال علي الجارم
في مصر، وبدوي الجبل في سوريا، ومحمد الزبيدي في اليمن. وأظن أن
مدرسة هذين العلمين قد انطوت.. وأصبحت تراثاً غنياً. يستحق الاحتفاء
والاحتفال به في كل عام.

■ ماهي آخر أعمالك؟

— أعددت ديواني الثامن للنشر، وهو بعنوان «ترجمة رملية لأعراس الغبار»
أما ديواني السابع فقد ظهر عام ١٩٧٩ بعنوان «زمان بلانوية».

... وانتهى الحوار، وترك الشاعر اليمني الكبير عبدالله البردوني،
وهو أشد ما يكون تواضعاً ووداعة.. ولكنني عندما خلوت إلى ديوانه
الأخير، عرفت التأثير على حقيقته.. أليس هو الذي يقول:

أنا ضد تيار هذا الركام	أعوم إلى شاطيء من شغل
وأدري، وأدري بأنسي إليه	أخوض دمي، والردى والوخل
وفوق فمي أرجل الآخرين	وفوق قذالي قبور الأول

لأنني أبسبل نوم الجدار أغني بمن لقبوهم همل
ولكنني لأقل العناد لأن السماوت موت أقل
وأعرف أنني وحيد، وحولي كهوف من الروم حمر المقل
وأني على نصف رأسي أطير إلى الحنف، والقتل بمشي المهمل



الحجـواري والشعر في العصر العباسي الأول

الدكتور أحمد مطلوب

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

استهوى البحث في الشعر والغناء كثيراً من المؤلفين؛ لأنه يمس جانباً إنسانياً عاشته البشرية طوال قرون كثيرة، وتستغل تحياه مادامت القلوب تنبض في الصدور، والعواطف تتأجج في القلوب. وشغل العرب قديماً بمثل هذا الموضوع وتركوا تراثاً ضخماً يمثل عاطفتهم وإنسانيتهم، ولعل كتاب «الأغاني» لأبي الفرج أحفل الكتب بأنخبار الشعر والغناء وقصص الشعراء والمغنين. واتجه الباحثون في هذا العصر إلى إحياء التراث واستلهامه فكانت الدراسات الجادة والبحوث الأصيلة التي اتصلت بالشعر والغناء منذ الجاهلية حتى العصر الحديث. ومن تلك الكتب: «القيان والغناء في العصر

الجاهلي» للدكتور ناصر الدين الأسد، و«الشعر والغناء في مكة والمدينة لعصر بني أمية» للدكتور شوقي ضيف، و«المرأة في أدب العصر العباسي» للدكتورة واجدة مجيد عبدالله الاطرقجي، و«قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني الأخير» لعبدالكريم العلاف، و«الموسيقيون والمغنون خلال الفترة المظلمة» للحاج هاشم محمد الرجب، وغيرها من الكتب التي تحدثت عن الجوّاري والقيان وبسطت القول في الشعر والانشاد.

وجاءت الدكتورة سهام عبدالوهاب الفريح من جامعة الكويت لتضع رسالة عن «الجوّاري والشعر في العصر العباسي الأول» مضيئة حلقة جديدة إلى حلقات الدرس التي تشهدها الجامعات العربية في هذه الأيام. والكتاب الجديد يتناول بحث الجوّاري والشعر من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ حتى نهاية خلافة الواثق سنة ٢٣٢هـ، وهو عصر ازدهرت فيه الثقافة وكان للأدب شأن كبير. ولم تقف المؤلفة في رسالتها طويلاً عند الجوّاري والقيان في العهد السابق لئلا يشغلا ذلك عن طبيعة موضوعها، ولذلك أشارت في التمهيد إلى الرقيق في العصر الجاهلي وأثر الإسلام فيه، وكان ذلك مجازاً للوصول إلى العصر العباسي والكلام على الجوّاري ودوره في الشعر والغناء وتحديد الخصائص الفنية لذلك الشعر الذي نطق به الشعراء أو تنهدت به الجوّاري في ذلك الزمان.

إن معالجة الموضوع بهذا المنهج الواضح وقى المؤلفة العثار وجعلها تسير بخطى ثابتة على أرض لا عوج فيها، وأوصلها في نهاية المطاف إلى نتائج سليمة لا لبس فيها ولا التواء، ولولا دقة المنهج ووضوح الهدف لدخلت في متاهات كثيرة خلقها اضطراب الروايات واختلاف الأخبار وتناقض المؤلفين.

إن كتاب «الجوّاري والشعر في العصر العباسي الأول» من الدراسات الجادة التي قرأتها في هذه الأيام، وقد استطاعت الباحثة الفاضلة أن تخرج من ركام المصادر بخير ما يدخر وأوثق ما يعتمد، وكانت حريصة على النظر

في الروايات قبل الاطمئنان اليها ؛ لأن التراث العربي حفل بالمكذوب إلى جانب الموثوق من القصص والأخبار. وكانت المؤلفات تشير إلى ذلك بين حين وآخر فتقول — مثلاً — : « وكان الرقيق من النساء أكثر عدداً من الرجال ، فقد زحرت بهن قصور الخلفاء والأمراء والقواد والعامة من الناس ، وأحل الإسلام للرجل أن يمتلك ماشاء من السرائر والاماء فيقال انه كان للرشد وزوجته زبيدة — إن صحت الرواية — زهاء ألفي جارية .. وكان للمتوكل — إن صحت مزاعم الرواة — أربعة آلاف سرية » . وتقول : « هذه نماذج مما قال بعض الخلفاء — إن كانوا حقاً قالوها ولم تكن من صنع القصص وأصحاب أدب الأسمار — ولو لم تنسب إلى خليفة ما حفلت بها الكتب ولا حفظها الرواة ، فهي تذكر لأهمية قائلها لجمال فني فيها ، ومن الحق أن هذه المقطوعات التي نظمها بعض الخلفاء — إن صح أنهم نظموها — » وتقول : « وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد تكون هذه الرواية من الأخبار الموضوعة ، وأنها جزء من حرب الدعايات بين الأمويين والعباسيين ، ولا ننسى أيضاً أن أهل السنة لم يفتروا للمأمون أنه أول من بدأ بحنة خلق القرآن ، وقد تشكك ابن خلدون في مقدمته في كثير من هذه الأخبار القصصية التي تروى عن هارون الرشيد والمأمون مما أورده أبو الفرج وابن عبد ربه » . وهذه حيلة من المؤلفات لئلا تنسب إلى القدماء ما لم يقولوه أو يفعلوه ، ولذلك قالت : « إن صحت الرواية » و « إن صحت مزاعم الرواة » و « إن كانوا حقاً قالوها » . ولكن الدراسة العلمية تقتضي نقد الروايات قبل الاعتماد عليها ، وقد أوقع الأخذ بها من غير تمحيص كثيراً من الباحثين في تناقض أو جعلهم يصورون المجتمع العربي تصويراً بعيداً عن الواقع ، ولا أظن أن حياة العرب والمسلمين في العصر العباسي كانت كما ذكرت بعض المصادر التي اتخذها المستشرقون واعداً الأمة حجة للكلام على فساد المجتمع العربي وتدهور الحضارة. ولعل هذا الاتجاه هو الذي دفع المؤلف الفاضلة إلى القول بأن دور القيان انتشرت في العصر العباسي وكان النخاسون يديرونها ويتخذونها حرفة

يعيشون منها . وقد يكون ذلك صحيحاً ولكن المبالغة في الروايات والأخبار واضحة، ولو كان اللهو أساس الحياة العربية ما ازدهرت الحضارة وأصبحت بغداد منار الهدى في العالمين . وقد التفتت المؤلفة إلى مسألة هامة وهي ان معظم تلك الدور « كانت مملوكة لعناصر غير عربية » ومانزال تلك العناصر تزرع الفساد في الأرض العربية وتسعى إلى تقويض الأمة وانها دورها في الحضارة الانسانية . لقد كانت المؤلفة حريصة على سمعة أمتها ، مؤمنة بأن كثيراً مما ذكره الرواة منحول وضع للسمر أو للمجون أو دفعه الشعوبيون إلى القصاص ليطعمنوا في الأمة ويشفوا صدورهم التي ملئت حقداً يوم دخل الناس في دين الله أفواجاً وأقام العرب دولتهم الكبرى ورفرت أعلامها في كل مكان . وعندي ان كتاب الدكتور ساهم كان من خيرة البحوث الجامعية ، فقد حرصت على اللغة ونصاعتها ، ودقة المنهج وسلامته ، وصحة العرض والاستنتاج ، ووضوح الفكرة والهدف ، وجاء لايشكو قصر الرسائل المبسرة ولاطول الرسائل المترهلة التي يحرص أصحابها على ضخامتها ويتباهون بكثرة صفحاتها فاسين ان البحث العلمي مناقشة ونتائج وليس عرضاً للمعلومات . وسيجد القارئ مصداق ذلك حيناً يلج مجاز البحث ويعبره إلى الفصل الأول ويقف حيث أريد الوقوف عند الخاتمة وكأنه يقرأ قصيدة اتسقت كلماتها ، وصفا إيقاعها ، وسلست قوافيها ، وتوحد موضوعها .

تلك نظرة اعجاب وتقدير أضعها أمام كتاب « الجواري والشعر في العصر العباسي الأول » وأقدمها إلى الدكتور ساهم التي عرفت كيف تحدد الهدف وتضع المنهج وتؤلف الفصول . وبقيت عندي كلمة أقولها لا للمؤلفة وإنما للسائرين في دروب البحث ، من ذلك ان الباحث يحاول أن لايدع مادة جمعها ، ولذلك فهو يسعى إلى ادخالها في بحثه مما يخل بالمنهج حيناً أو بالترابط أو بسعة البحث من غير حاجة إلى البسط أحياناً ، أو باعادة الكلام على قضايا أوجزت وكان حقها التفصيل لثلا يصيب الفكر انقطاع أو تحوج الباحث إلى الوقوف عندها ثانية ، وكان من الأحسن بحثها حيث أوجزت ،

ومن ذلك في كتاب الدكتور ساهام كلامها على الشعراء الذين اشتهروا بالغزل بالجواري، وهو كلام سبق في القسم الأول من «الغزل والجواري» وكان خيراً للبحث أن يضم الحديث عن بشار والعباس بن الأحنف وأبي العتاهية وأبي نواس وإبراهيم الموصلي ومحمد بن أمية، إلى الغزل المادي والعفيف الذي. ابتدأ الفصل الثالث بها وبذلك يسلم البحث من التكرار ويأخذ قراره المكين .

ومن ذلك ان الباحث يظل مرتبطاً باستاذة المشرف ارتباطاً وثيقاً، وليس ذلك عيباً، وانما الخوف أن لا ينطلق الباحث وييدي رأيه أمام استاذة، وقد ارتبطت الدكتور ساهام باستاذها المشرف ورددت آراءه من غير أن تدقق فيها، ومن ذلك أنه قال إن المزدوج لم يستخدم كثيراً في الشعر الغنائي بل استخدم في الشعر التعليمي، وانه مهّد لظهور الرباعيات في الأدبين العربي والفارسي كقول بشار في جاريته ربابه :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وهذا الرأي قاله المستشرق أدوارد أنفيل براون في كتابه «تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي» وليس صحيحاً؛ لأن ما نظمته بشار ليس من الرباعيات بل لم يسع الشاعر إلى ذلك وانما طلب إرضاء جاريته ولذلك قال: «لكل وجه وموضع .. وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا أكل البيض من السوق، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض وتحفظه عندها، فهي عندها من قلبي أحسن من «قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل» .

ومن ذلك أن الباحث يعتمد كثيراً على المراجع في دراسة الأدب القديم ولا سيما كتب المستشرقين مع أن الرجوع إلى المصادر هو الأصل، ولا يلجأ إلى المراجع إلا عند مناقشة رأي أو أخذه أو رفضه . وقد فعلت المؤلفة ذلك حيناً

نقلت آراء الدكاترة طه حسين وشوقي ضيف وأحمد عبدالستار الجوارى وإبراهيم أنيس ويوسف بكار وغيرهم من المعاصرين، وإن كانت قد رجعت أيضاً إلى غير ذلك في بعض القضايا التاريخية، ومجالها المصادر لا كتب المعاصرين.

ومن ذلك دراسة الخصائص الفنية، وهذا فصل لا يخلو منه كتاب حديث، وقد أحسنت المؤلفة صنفاً، ولكن وقوفها عند الأوزان والقوافي كان عابراً مع أن صلة الوزن والقافية بالغناء وثيقة، وقد كان خيراً للدراسة أن تجلو هذه المسألة وتوضح التطور الذي مر به الشعر المغنى من خلال دراسة الأوزان والقوافي، وأرى أن هذا موضوع خصص يتسع لكتاب يفرد لدراسة علاقة الأوزان والقوافي بالغناء وتطوره خلال الحقب الطويلة التي مر بها الشعر العربي.

إن هذه الكلمة الموجزة تحية للدكتورة سهام الفريح وتهنئة لها بكتابها الجديد في موضوعه ومنهجه، واني لأرى بشائر خير ستزهر في دراسات أخرى، فما يزال الطريق أمامها طويلاً وما يزال الدرب أمام الباحثين صعباً، ولن تؤرخ الحضارة العربية ما لم يتضافر الباحثون وتصدق النيات، فقد كانت الأمة العربية «خير أمة أخرجت للناس» ولكن بعض الدارسين شوه معالمها، وكتاب «الجوارى والشعر في العصر العباسي الأول» من الدراسات التي جلت المعالم، وكشفت الحقائق، وأعادت الأمل إلى نفوس المؤمنين بأمهم ورسالتها الخالدة، و«لمثل هذا فليعمل العاملون».

الدكتور أحمد مطلوب

كلية الآداب — جامعة بغداد

أمام الباب الموصد



و يظلُّ يحومُ
عصفورٌ مرتعشُ الريشات يحومُ
عند البابِ المدفونِ وراء الغيم .. وراء الريح
يغدو ويروح
يستجدي الباب
والبابُ الموصدُ أحطابُ
بردٌ مقروءٌ ..
وضبابُ

« لاشيء لديّ »

يتناهى صوتٌ مخنوقٌ من خلفِ البابِ :-

« لاشيء »

لارفتهُ دفةً فوقَ الريشِ تمرّ

لاحبةٌ بُرّ

لاحسوةٌ ماءٌ*

لاقطعةٌ فيءٌ*

لاشيئاً أمنحهُ لاشيءٌ»

• •

يمضي الطيرُ المكلومُ

جنحاً ينأى في عاصفةِ الليلِ

والليلُ وجومٌ

وقطيعٌ غيومٌ

أمطارُ الحزنِ ترزخُ على جدرانِ الصمتِ

تسقي جذراً ينمو في وديانِ الصمتِ <http://www.voc.com>

وعلى أطرافِ الكونِ النائمِ فوق ذراعِ الموتِ

تفتتحُ في قهرٍ مكتومٍ

أزهارُ الصمتِ

تتشابكُ أسيرةً بلهاء تصدُّ الشمسَ

تصدُّ الريحَ

والجنحُ الراعشُ ينهشهُ شوقٌ مذبوحٌ

لاشيءٌ يلوحُ !

غيرُ البابِ المدفونِ وراءِ الغيمِ وراءِ الريحِ

غيرُ الصمتِ الثاني في وديانِ الغابِ

يترقبُ صوتاً مسفوحاً من فرجةِ بابٍ
يستشرفُ نوراً مسكوباً من فرجةِ بابٍ

يا طيرَ الشوقِ المبحوحِ

الكونُ همودُ

الدربُ خواءُ

لا شيء يلوخ

لا شيء يلوخ

سيظلُّ خيالُ الدفءِ وراء البابِ

لعناتِ عذابِ

شباكاً فوق الغيمِ مُضاءُ

يتنفّسُ في قلبِ الأشياءِ

الكونُ همودُ

الدربُ خواءُ

لا ينبضُ شيءٌ في الظلمةِ

غيرُ الشباكِ الموصودِ

شفتين على دربِ العتمةِ

تتحدى البوخ

• • •

الطيرُ المرتعشُ الريشاتِ يحومُ

ويدقُّ المنقارُ المحطومُ

طرقاتِ رجاءِ

فوق البابِ المخبوءِ وراء الغيمِ وراء الريخِ

والصوتُ النائي المجروخِ

رعشاتُ غتاءِ

كفّ ممدود مهزوم
وذراع تحضن في شغف
ولّة الأصداء

لاشيء في الآفاق بلوخ
يا جرح الشوق المذبوح
لاشيء بلوخ

• •

سأظلّ أحوم
عصفوراً مختلج الريشات أحوم
عند الباب المدفون وراء الغيم وراء الريح
أغدو وأروخ
أغدو وأروخ



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



دور اللغة في الدراسات الاجتماعية

د. عبد الرحمن الأيوب

<http://Archivebela-Sakhr.com>

ألقى الدكتور عبد الرحمن الأيوب محاضرة في قاعة
المحاضرات برابطة الأدباء مساء يوم الأربعاء
١٩٨٢/١١/١٧ تحت عنوان «دور اللغة في الدراسات
الاجتماعية». وهذا هو نص المحاضرة

يتجاوز دور العالم في نظري مجرد اكتشاف الحقائق الخاصة بموضوع
بحشه إلى دائرة أوسع هي اكتشاف القوانين العامة التي تحكم العلم الذي
يدخل بحشه في نطاقه ثم إلى دائرة أكثر اتساعاً تربط بين العلوم على

مختلف مجالاتها باكتشاف قوانين عليا تخضع لها ظواهرها . وبمثل هذه النظرة تضيق الفجوة التي تفصل بين مايسمى بعلوم الحياة ومايسمى بعلوم الطبيعة وبفضلها نشأت علوم جديدة تربط بين المجالين فتدرس الكائن الحي باعتباره حياً وباعتباره مركباً مادياً كبقية المواد غير الحية .

والدراسات الإنسانية بهذا المعنى دراسة للداخل النفسي للكائن الحي ودراسة لتركيبه المادي في نفس الوقت . وبفضل ماوهب الإنسان من ملكة التفكير وغيرة التجمع دارت الدراسات الإنسانية حول الدراسة النفسية والاجتماعية للإنسان . وفي هاتين الدراستين تمثل الرمزية نقطة الارتكاز . والرمزية بمعناها العام ادراك قيمة الشيء بادراك الفرق بينه وبين سواه من الأشياء التي تشترك معه في مجال رمزي معين ، فمفهوم الخط لايتضح إلا بادراك الفرق بينه وبين نقيضه وهو النقطة والفضائل أعمال تتميز عن أعمال تناقضها نسعيها الرذائل وبضدها تتميز الأشياء كما تقول الحكمة العربية .

ومن باب الرمزية تدخل دراسات اللغة مجال الدراسات الاجتماعية . أما الدراسات النفسية فللغة دورها الخطير فيها . وذلك لأن اللغة هي الوسيلة الوحيدة لادراك مايدور في ذهن الآخرين على مستوى الشعور واللاشعور . ومن هناك فقد كانت الارتباطات الدلالية بين الألفاظ الوسيلة الوحيدة لتحليل النفسي . بل لقد بالغ البعض — ولعله لم يبالغ — فاعتبر ان اللفظ شرط أساسي لوجود الفكرة ، فالفكرة التي لا لفظ لها لا وجود لها . أما الجانب الثالث من الدراسات الإنسانية وأعني به الدراسات الفيزيائية والكيميائية للإنسان فقد اكتشفنا أخيراً انها الأداة الوحيدة لفهم العمليات العقلية التي تحصل بادراك اللغة واكتساب العقل لها وقد تمتد إلى تفسير التطور الدلالي للألفاظ والتركيبات النحوية والصرفية والصوتية .

الوحدات والنظم :

« العود في أرضه نوع من الحطب » . هذا القول صادق من وجهة نظر

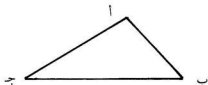
الشاعر الذي قاله ومن وجهة نظر الدراسات الإنسانية التحليلية. وسيظل العود مجرد عود طالما انه لم ينتظم مع عدد سواء من الأشياء في مجال وظيفي ما. وعلى فرض أن العود قد اقترن بالخشب والطوب والمسامير، لكان وحدة في نظام رمزي هو «أدوات البناء» له فيه دور (في صناعة السقوف في منازل الريف) كما أن للخشب والمسامير دورهما في صناعة الأبواب. وليس العود بهذا الاعتبار نوعا من الحطب لأنه قد اكتسب بهذا الارتباط وظيفة أو قيمة رمزية.

والأبحاث الاجتماعية الحديثة تنتهي إلى اكتشاف — ويقول البعض تكوين — مجموعة من النظم تضم وحدات معينة، لكل منها وظيفة داخل النظام. وبتكامل هذه النظم وشمولها تنتهي إلى ما يسمى بالبناء.

وقد نشأت النظرية البنائية في مجال الدراسات اللغوية، على يد دي سوسير. وعنده ان هناك فرقا بين الكلام واللغة. والأول من هذين عمليات ادائية، أما الثاني فانه نظم تتكون من وحدات تقوم بينها علاقات. كما قرر ان هذه النظم تتكامل وتتداخل حتى تكون البناء الكلي للغة. وسنحاول توضيح هذه النظرية برسم هندسي وبعدد من الأمثلة اللغوية.

هذا خط كل قيمته أنه خط ولكننا حين نضيف إليه خطا آخر نخلق لكل منهما قيمة رمزية غير مجرد أنه خط، فلو وضع أحدهما من الآخر على هذا النحو:

لكانا عضوين في نظام رمزي ثنائي هو التوازي أما لو وضعنا على هذا النحو — فسيكونان عضوين في نظام هو التقاطع وهكذا. ولو اضعفنا اليهما خطأ ثالثاً ووضعنا هذه الخطوط على هذا النحو:



لوجدت وحدات ثلاث تتمثل في الخطوط وعلاقات ثلاث تتمثل في الزوايا التي تمثل كل منها العلاقة بين الخطين اللذين يحصرانها. ولوجد نظام هو المثلث تتحدد فيه الخطوط (أطوالها) وعلاقاتها (الزوايا) في إطاره.

وليست الوحدات الفاظاً بذاتها بل هو أنواع من الألفاظ. مثال ذلك النظام الذي يسمى بالجملة الفعلية يتكون وحدة هي الفعل ووحدة أخرى هي الاسم وعلاقة نسميها الفاعلية. ويمكن وضع النموذج التركيبي للجملة الفعلية هكذا:

الجملة الفعلية = فعل + اسم + علاقة الفاعلية

وهذا الفعل نوع قد يتمثل في العبارة الكلامية بالكلمة «خرج» أو «دخل» أو «سافر» كما أن الاسم نوع قد يتمثل بالكلمة «محمد» أو «محمود» أو «علي» وبهذا المعنى نقول بأن الوحدة هي نوع وليست لفظاً بعينه. وقد يحدث أن تكون هناك كلمة بعينها يتحتم أن تعتبر وحدة في التركيب مثل «لا» النافية للجنس فهي ضرورة أنها اللفظ الوحيد الذي يدل على نفي الجنس في العربية تمثل نوعاً من أنواع الكلمة لا يتحقق في الخارج إلا بلفظ واحد.

ويتحتم على الباحث اللغوي أن يحدد الأنواع التركيبية واللغة التي يدرسها وأن يضع كل نوع باعتباره وحدة في نظام من نظم اللغة المتكاملة والمتداخلة كما سبق أن ذكرنا.

البنائية والدراسات الاجتماعية

بعد هذا العرض السريع للنظرية اللغوية البنائية نتعرض لما يحدث في الدراسات الاجتماعية. ويذكر كلود ليفي شتراوس ان بعض علماء الاجتماع يرون أن الأساطير (الميثولوجيا) تعبير عن مشاعر انسانية كامنة في نفس الإنسان كالحب والكراهية والانتقام. ثم يضيف ان «علماء النفس التحليليين وعلماء الثقافات قد تخلوا عن هذا الاتجاه وقالوا بأن الأساطير تضيف نوعاً من الأهمية على شخصية ما، ولتكن الجدة العجوز، ونجعلها رمزاً لشيء ما كالشر أو السحر، والاسطورة بهذا الاعتبار صورة خارجية للرموز الكامنة في النظام الاجتماعي» ثم يستطرد مقارنة التحليل الاسطوري بالتحليل اللغوي: وفي اللغة توجد ثنائية اللغة والكلام والأولى نظام تركيبى جماعي أما الآخر فمظهر احصائي (واقعي) واللغة يمكن أن تعاد (بالتطبيق) أما الكلام فلا يمكن أن يعاد ضرورة، انه يمثل عملية واحدة بعينها تنتهي بانتهاء النطق بها. وكذلك الأمر بالنسبة للأساطير فهناك القيم او الرموز الاجتماعية الكامنة في العقل الجمعي وهذه نظير اللغة، وهناك التطبيق الخارجي، أي الأساطير وهي كالكلام أحداث أو تعبير عن هذه الرموز. ويوضح شتراوس طريقته في تحليل الأساطير بسلسلة من الألحان في قطعة موسيقية يرمز لها بالأرقام ١، ٢، ٤، ٧، ٨، ٢، ٣، ٤، ٦، ٨، ١، ٤، ٥، ٧، ٨، ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٨. ويذكر انها يمكن النظر اليها باعتبارها مجموعة من الألحان المتوالية أو باعتبارها مجموعة من الأنواع. وفي هذه الحالة يجري ترتيبها على هذا النحو، التي سنذكر أمثلة لها.

١ - ١	٢	٤	٧	٨
٢ -	٢	٣	٤	٦
٣ - ١	٤	٥	٧	٨

كمن نصبه الأعداء . وغادرت روحهما جسديهما وقصدت إلى مسكن صانع الكون وبعد مغامرات طويلة تمكنا من مقابله وإطلاعه على ماحدث لهما فمنحهما الخلود بتناسخ روحهما في مخلوقات أخرى إلى الأبد .

المثال الثاني :

زوج يأسر الأرواح زوجته ولايستسلم بل يغامر في سبيل انقاذها ولكنه يهلك خلال مغامرته وتقديرا لتضحيته تعود روحه إلى العالم في صورة مخلوقات تتناسخ روحه الوجود فيها مرة بعد أخرى .

المثال الثالث :

جماعة تتبع مذهبا دينياً معيناً تضحي بأنفسها في سبيل اتباع المذهب وتموت ثم تتناسخ ارواحها في مخلوقات معينة فتضحي بأنفسها من خلال أجسام هذه الحيوانات ثم تدخل ارواحها اجسام حيوانات أخرى وتضحي بأنفسها وتموت وهكذا ..

و يلاحظ أنه بالرغم من تعدد فعل هذه الأساطير واختلاف رواياتها، فإن هناك عناصر ثابتة في جميع الحالات . وتحليل هذه العناصر نصل إلى القصيدة الداخلية المستقرة في نفس هذه الجماعة والتي يعبرون عنها في حكمهم وملخصها ان الشخص الذي يضحي بنفسه في سبيل الآخرين لاتذهب تضحيته هباء بل انه حين يحرم نفسه من الحياة الكاملة يعوض عما فقده بالحياة من خلال مخلوقات أخرى تمثلها روحه مرات ومرات إلى الأبد .

وفي اعتقاد الجماعة أن الذي يضحي بنفسه يتنازل عن بقية عمره لقبيلته وان لكل قبيلة رصيذاً من العمر يتمثل فيما يخلفه من يضحون بأنفسهم من حياتهم وهذا الرصيد يوزع على الصالحين من ابناء القبيلة فتطول بالتالي اعمارهم اما الفدائي فإنه يجازى عن تضحيته بأن يحيا إلى الأبد في جسم

مخلوقات أخرى. وبالتالي فإن هناك مقابلة ذات ثلاثة أطراف.

الموت الكامل حالة متوسطة بينهما الحياة الكاملة
وهذه المقابلة تظهر في القواعد التالية:

- ١ — الشخص الجبان الذي لا يشترك في الدفاع عن القبيلة يحيا حياته الكاملة ثم يلاقي الموت الكامل. وذلك لأنه لا يأخذ نصيباً من رصيد العمر.
- ٢ — الشخص الشجاع الذي يشترك في الدفاع عن القبيلة ولكنه لا يموت يحيا حياته كاملة و يضيف اليها نصيبه في رصيد العمر وهو بالتالي لا يموت موتاً كاملاً.

٣ — الشخص الذي يضحي بنفسه في سبيل القبيلة دون انتظار جزاء يحيا بعض حياته ولكنه في نظير هذا لا يموت موتاً كاملاً بل تتناسخ روحه في أجسام مخلوقات أخرى إلى الأبد.

هذه القصيدة، والقواعد التطبيقية لها من خلق الأساطير التي توجد في هذه الجماعة، تماماً كما أن الجمل: محمد قائم وعلي مسافر، وإبراهيم عائد، تطبيق خارجي لنظام تركيبي اسم الحملة الاسمية نموذج: مبتدأ + خبر.

ولم يكن شتراوس أول من اكتشف الارتباط الوثيق بين علمي الاجتماع واللغة، فمن قبله وجد مالمينوفسكي ان لغة الصيادين في جزر المرجان لا تختلف عن لغة الفلاحين في مفرداتها فحسب بل في بنيتها. وفي العربية هناك تفريق في نوع الضمير الذي تستعمله لشخص عظيم أو عادي أو حقير، فنحن نخاطب الأول بصيغة الجمع، انتم شرفتم، مع أفرادهِ ونستعمل للأخير صيغة التصغير. كما أننا نميز بين العاقل وغير العاقل والمذكر والمؤنث .. الخ. وكل هذه الاختلافات اللغوية انعكاس لاختلافات خارجية اجتماعية .. كما أن دلالة العبارة محكمة كذلك بالظروف

الخارجية ، فقد تكون العبارة ذاتها مدحاً أو قدحاً طبقاً للظرف الاجتماعي الذي تقال فيه . ومن هنا فإن علماء اللغة عند دراستهم للدلالة يفعلون ذلك على مرحلتين : دراسة الدلالة القاموسية والنحوية والصرفية للعبارة ودراسة الظروف الخارجية التي تحدد معناها النهائي .

ولكن ميزة شتراوس تتمثل في اكتشاف « البنائية » التي من خلف كل الأصوات الاجتماعية والقيم الثقافية .

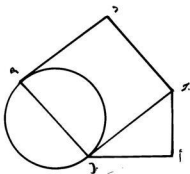
وقبل دي سوسبير أدرك علماء النفس والاقتصاد وسواهم علاقات بنائية عن الأشياء ولكن دي سوسبير هو أول من وضع نظرية بنائية محددة المعالم في كتابه « منهج في دراسة اللغة » . وقد استقرت البنائية في الدراسات الإنسانية الى حد دفع بعض الباحثين إلى محاولة العثور على منهج للبحث يشمل العلوم الاجتماعية كلها .

التطور والنظم :

عالجنا فيما سبق الوحدات والعلاقات باعتبارها مكونات لنظم مستقرة . ولكن الاستقرار مجرد افتراض ضرورة أن الكون من جانبيه المادي وغير المادي في تغير مستمر . ومن هنا فإن التغير يلحق بالوحدات أو بالعلاقات داخل النظام فيتغير بالتالي النظام الذي يتكون منها . وقد يبدو لنا النظام مستقراً — أي متوازناً — وذلك طالما أن التغير قليل ولكنه عندما يزد إلى درجة نلاحظ آثارها فإن هذا يعني اختلال النظام .

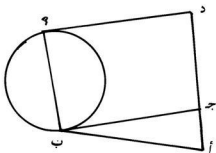
ولنرجع إلى المثلث الذي رسمناه من قبل . ولترسم هذه المرة مربعاً على ضلع من أضلاعه ثم دائرة قطرها أحد المربع . وسيكون الشكل هكذا :





ولنفرض أن الضلع أب ج قد طال بمقدار ملليمتر واحد فإن هذا الطول سيؤثر على طول الضلع أب وبالتالي على أطوال اضلاع المربع ثم على قطر الدائرة مما يؤثر على مساحتها. ولكن هذا التغير سيكون ضئيلا بحيث قد لا يمكن ملاحظته.

أما لو كان التغير بمقدار يضاعف الطول الأصلي، فإن نسبة الاختلال في الشكل العام ستكون من العظم بحيث لا يمكن تجاهلها. ولهذا فإن التغير سيؤدي لاختلاف في النظام المركب كله.



نظرية التوازن:

تقرر هذه النظرية أن الجزيئات داخل النظام تتغير دائماً ، فإذا كان التغير قليلاً يمكن تجاهله فإن النظام يعتبر في حالة استقرار أو توازن ولكنه إذا زاد بحيث لم يمكن تجاهله فإن هذا يؤدي إلى اختلال النظام . ويؤدي اختلال النظام إلى عملية إعادة التوازن التي ينتج عنها الاستقرار مرة أخرى ولكن مع نظام جديد مغاير للنظام الأول .

ومثل هذه العملية هي التي ينتج عنها التطورات اللغوية والاجتماعية هنا . ولتطبق مانقول هنا على اللغة :

في العربية الفصحى نظام اسمه نظام الإعراب يتكون من وحدات هي الكلمات ليس ولم ولن وإن الخ . وبين هذه الوحدات علاقات تتمثل في اختصاص كل منها بمجال معين ، فليس تنصب المبتدأ وترفع الخبر ولم تجزم المضارع ولن تنصبه وإن تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهكذا حتى تستغرق فيما بينها جميع الامكانيات التركيبية التي تحدث فيها ظاهرة الإعراب .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

والإعراب نظام متداخل مع نظم أخرى ضرورة اشتراك بعض الكلمات بينه وبين هذه النظم . ومن هذه النظم النفي وتشترك ليس ولم ولن في كلا النظامين . ولهذا فإن التغير الذي طرأ على الإعراب والذي أدى إلى سقوطه من اللهجات العامة أدى بالتالي إلى سقوط استعمال هذه الكلمات لعدم ضرورتها الإعرابية . وبسقوط هذه الكلمات اختل نظام النفي في اللهجات ، وصار من الضروري ابتكار نظام جديد لا يعتمد على الإعراب .

وقد لجأت بعض اللهجات المعاصرة ، ومنها لهجة السودان ولهجة الموصل إلى نفي جميع تراكيبها بمجرد وضع « ما » قبل الكلمة المنفية مهما كان نوعها فالكلمة « سافر » نفياً « ماسافر » و « محمد » نفياً « مامحمد » و « عليك » نفياً « ماعليك » .

أما اللهجتان المصرية والعراقية فقد لجأت إلى نظام أكثر تعقيداً ..
وفي العراقية يكون النفي على هذا النحو:

١ - نفي الاسم الجامد والضمير يكون بأن تسبقه «مو»

مثل: هذا مو محمد - هذا مو آني

٢ - نفي الاسم المشتق يكون بأن تسبقه «ما» أو «مو»

مثل: أنا ما موجود أو أنا مو موجود

٣ - نفي الفعل يكون بأن تسبقه «ما»

مثل: «ما شربت»، «ما يشرب»، «ما راح ياكلون»

٤ - النهي عن الفعل يكون بأن تسبقه «ما» أو «لا»

مثل: «لا تتكلم» أو «ما تتكلم»

٥ - في جملة القسم تستعمل لنفي الاسم بجميع أنواعه مثل:

النفي مع القسم	النفي بدون قسم
وداعتك ما محمد ولا علي	مو محمد ولا علي
وداعتك ما آني	مو آني
وداعتك ما موجود	مو موجود

٦ - النفي مع الاستفهام: وفيه تستعمل «مو» أو «غير» في نهاية الجملة

الخبرية بعد توقف قليل مثل:

هذا المصري مو؟ أو هذا المصري غير.

وهذه الأمثلة غير المفصلة تبين أن نظام الإعراب الذي اختل قد أدى بدوره إلى اختلال نظام النفي الذي يتداخل معه، وأن اللهجة العراقية قد أعادت التوازن بابتكار نظام جديد للنفي.

وفي اللهجة المصرية جدت كذلك أدوات للنفي كانت وحدات في نظام للنفي شبيه بنظامه في العراقية، على هذا النحو:

أ - في الجملة الخبرية:

١ - ينفي الاسم الجامد والمشتق بأن تسبقه أداة النفي مثل:
أنا مش جاي أو أنا مش محمد.

٢ - ينفي الضمير بوقوعه بعد «مش» أو بعد «ما» مع التصاق شين الأخيرة به مثل:

أ - ده مش أنت، ب - ما انتش مسافر

وفي «أ» يعادل النفي في الجملة العربية لست أنت بل سواك وفي «ب» يعادل أنت لن تسافر، أي أنه في الواقع نفي للخبر كله وليس نفيًا للضمير بذاته.

٣ - ينفي الفعل بوقوعه بعدما والتصاق الشين في آخره مثل: ماكلش (نفي كلت). وذلك سواء كان ملتصقاً بالسابقة الباء أو غير ملتصق بها مثل ماكلتش وما باكلش.

٤ - إذا كان الفعل ملتصقاً بالسابقة «ح» أو «ج» الدالة على الاستقبال تحتم نفيه بالأداة: مش، مثل «مش حيلعب».

٥ - نفي الاسم الظاهر المجرور بالضمير يكون بالأداة مش مثل «مش في البيت» ولكن نفي الضمير المجرور بالحرف يكون بما والشين الأخيرة مثل «مالكش».

في جملة القسم:

القسم المنفي	الخبر المنفي
والله ماكلت	انا ماكلتش
والله مانا جاي	مانش جاي
والله محمد ماهو في البيت	محمد مش في البيت

في جملة الاستفهام:

الاثبات	النفي	الاستفهام المنفي	الاستفهام التقريري
انت قلت	انت ما كنتش	مش انت قلت ؟	تكونش قلت
الواد في البيت	الواد مش في البيت	مش الواد في البيت ؟	يكونش الواد في البيت

وتعرض هذه الأمثلة طرقاً مختلفة للنفي في المصرية، باستعمال «مش» وحدها أو استعمال «ما» والشين في آخر الكلمة أو استعمال «ما» وحدها أو استعمال الشين الأخيرة وحدها. ولكل من هذه الامكانيات مكان خاص.

يعني هذا أن هذه الأدوات تكون وحدات بينها علاقات تمثل مجال استعمال كل منها بما يغطي جميع امكانيات تركيب الجملة. ومن هذه الوحدات والعلاقات تكون في المصرية نظام جديد للنفي.

ونظرية التوازن بالمعنى الذي ذكرنا يطبق عند فرض كلمات من لغة أجنبية تدخل إلى ميدان دلالي معين فتحدث فيه اختلالاً لا يلبث أن يتوازن ويبدو في نظام جديد. مثال ذلك في المصرية الكلمة «بيت» و«دار» وفي العربية تكون الأولى جزءاً من الثانية. وعندما اقترضت المصرية كلمة «اوده» من التركية، اخذت مدلول «بيت» التي أخذت بدورها مدلول «دار». وقد انتقلت هذه الأخيرة إلى ميدان آخر هو لهجة الريف وبقيت لهجة القاهرة تحتفظ بثنائية دلالية هي بيت واوده أما لهجة الريف فإن الثنائية فيها «دار» و«أوده».

التوازن والنظم الاجتماعي:

قد يدخل عنصر جديد على نظام اجتماعي ما فيحدث اختلالاً في التوازن لا يلبث أن يعالج بما قد ينتج عنه استبدال نظام بنظام آخر. مثال ذلك المواصلات. منذ خمسين سنة كان المشي أو ركوب الدواب هو الطريقة المتبعة في الانتقال

من مكان لآخر. ثم اخترعت الدراجة. وقد أحدثت اختلالاً في وسائل الانتقال ولكنه كان محدود الأثر فبقي جنباً إلى جنب مع الوسائل الأخرى. ثم دخلت السيارة فكانت اختلالاً واسع الأثر. وقد نتج عن استعمال السيارة إنشاء الطرق والجسور وإعادة تخطيط المدن وبناء مواقف خاصة للسيارات ووضع علامات المرور وخلق قوة جديدة من رجال الشرطة لتنظيم السير ومحاكم للفصل فيما قد يحدث من مخالفات فيه.. الخ. وكانت النهاية أن سبب كل هذا تغيراً لا في وسائل الانتقال فحسب بل في تخطيط المدن واقتصاد الدولة. وهذا النوع من التغير شبيه بالتغير اللغوي الذي أدى إلى نشأة نظام جديد للنفي في المصرية والعراقية.

تحكم النظم في التطور:

لا يحدث التطور اللغوي — أو الاجتماعي — في نظام ما دون مراعاة للأوضاع القائمة في النظم الأخرى بل أن هذه النظم قد تتدخل لتشكل التطور أو لتحديد من آثاره. مثال ذلك: في اللهجة المصرية ثلاثة من قوانين التطور الصوتي، أحدها جعل الأصل الثاني المعتل من المادة الفعلية في صيغة اسم الفاعل «ياء» بينما يكون في الفصحى همزة: مائل ومائل، بائع وبائع..

وثانيها قصر الفتحة الطويلة التي قبل الحرف الأخير في اسم الفاعل المفرد المؤنث بهاء التأنيث مثل كاتب وكتبة (كاتبة) وبائع وبيعة (بائعة) وثالثها أن تصير الفتحة والباء الساكنة التي تليها، حركة طويلة نصف ضيقة (فتحة مماله) مثل بَيْتٌ — بين، وعَيْشٌ — عين ولتطبق هذه القوانين على لفظ «عائشة» علماً واسم فاعل:

أ — اسم الفاعل من «عاش»:

- ١ — عائش — عايش (القانون الأول).
 - ٢ — عايش (مؤنثا بالهاء) — عايشه.
 - ٣ — عايشة — عيشه (القانون الثاني).
- ولا يطبق القانون الثالث.

ب - العلم عائشة :

- ١ - عائشة - عائشة (القانون الأول) .
- ٢ - عائشة - عَيْشَة (القانون الثاني) .
- ٣ - عيشه - عيشه (القانون الثالث) .

ومن الواضح في المثالين أن القانون الثالث قد طبق مع العلم «عائشة» التي صارت في المصرية «عيشه» ولم يطبق مع اسم الفاعل المؤنث «عائشة» . والسبب في هذا ان عائشة الأخيرة طرف في ثنائية مذكر/ مؤنث .
واليك أمثلة أخرى :

اسم فاعل مؤنث	كلمة ليست اسم فاعل
(١) تَيْعَه (بائعة)	بِيعَه (صفقة)
(٢) بَيْتَه (بائته)	بَيْتَه (مَثْرَلَه)
(٣) شَيْخَه (شائخة أي جافة)	شَيْخَه (مؤنث شيخ)
(٤) زَيْحَه (مؤنث زايح أي دافع)	زَيْحَه (كارثة)
(٥) خَيْبَه (خائبة)	خَيْبَه (فشل)
(٦) سَيَّيَه (بمعنى طليقة)	سَيَّيَه (مباح للجميع)
(٧) شَيَّيَه (عجوز)	شَيَّيَه (لحية بيضاء)
(٨) عَيْشَه (حية) .. الخ	عَيْشَه (علم الفتاة)

وهكذا نرى تفسيراً مقبولاً لعدم تطبيق القانون الصوتي .

لنضرب مثلاً لهذا من الفقه الإسلامي :

تقرر القاعدة الشرعية اقامة الحد على السارق . ولكن الولد إذا سرق من مال أبيه لا ينفذ فيه هذا الحكم . والسبب في هذا أن الولد يمثل طرفاً في ثنائية اجتماعية هي اب/ ابن وقد منعت هذه الثنائية تنفيذ اقامة الحد على السارق، كما منعت ثنائية التذكير/ التأنيث تطبيق النفي الصوتي (تَيَّي) - لي (فتحة مماله) ، على اسم الفاعل المفرد المؤنث .

الجانب المادي للغة :

الصوت هو المظهر الخارجي للغة . وهو ظاهرة مادية ملموسة يمكن أن تحلل وتقاس . ولا يفرق الصوت الإنساني بهذا الاعتبار عن أي نشاط صوتي طبيعي آخر إلا من حيث اختلاف أجهزة إنتاجه وأجهزة استقباله في تكوينها وعملها . وليس الصوت وحده هو الجانب المادي للغة ، بل ان العملية النفسية تتمثل في الرمزية ، والإدراك هو بدوره عمليات مادية ، كذلك فقد انتهى علم النفس الحديث إلى أن ما يسمى بالتفكير أو التصور أو الانفعال هي في واقعها تفاعلات كيميائية تنتج تيارات كهربائية تحملها خطوط من الشعيرات العصبية إلى مختلف أجزاء الجسم ، تماماً كما يحدث في الحاسب الألكتروني حين يدير جهازاً من الأجهزة . والصعوبة التي تواجهنا في دراسة هذه العمليات لا تتمثل في نوعها بل في كمها ، وذلك لأنه بالرغم من أن هذه العمليات كلها يمكن أن تخضع للتحليل والقياس ، إلا أنها من الدقة والتنفيذ بحيث لا تنفي الأجهزة التي بين أيدينا لدراستها دراسة شاملة .

وهذا الاعتبار يتحطم الحاجز الوهمي الذي يفصل بين ما يسمى بدراسات الفنون والفكر والدراسات الطبيعية ، فالثانية هي النقطة التي تبدأ منها الأولى . وما يسمى بالتصور أو التذوق ليس في الواقع سوى عمليات مادية مجتة .

والأجهزة الصوتية في الجسم الإنساني نوعان : أجهزة إنتاج الصوت وأجهزة استقباله . ولكن عملية الكلام أو السماع لا تمثل الوظيفة الوحيدة للأعضاء التي تقوم بها . والعمليات النطقية هي نتاج جانبي لعمليات الشهيق والزفير وهما الوظيفة الأساسية للربوتين وللممر الهوائي الذي يصلها بالخارج كما أن للحنجرة وظيفة عصبية هامة هي التحكم في العضلات التي تحكم النصف السفلي من الجسم . والاذن كذلك جهاز للتوازن ، هو الذي يمكن الإنسان من الوقوف والمشي .

ثمّة اختلاف آخر بين الأجهزة الكلامية وبين الأجهزة الصناعية لإنتاج الصوت واستقباله ذلك أنها أجهزة معيبة ، لا تبلغ كفاءة الأجهزة الصناعية . وهذا العيب هو ميزتها الحقيقية بالنسبة لوظيفتها من ناحية ولحفظ حياة الإنسان من ناحية

أخرى. أما عيب الأوتار الصوتية فإنه ناتج عن عدم نقاء المادة التي صنعت منها ، ولهذا فإنها لا تستطيع إنتاج نغمة واحدة بسيطة ، بل انها تنتج عدداً من النغمات لاحصر له في نفس الوقت . وقد أدى هذا العيب إلى ضرورة تكيل هذا الجهاز بأجهزة أخرى للترشيح والتقوية تتمثل في عدد من غرف الرنين غير ثابت ، ولكنه ينتج عن تقلصات العضلات الكلامية وتراخيا . وبفضل هذا العيب في الأوتار الصوتية والأجهزة التي تعالجه ، بلغت اللغة الإنسانية من الكفاءة بحيث تميزت به عن الحيوان ، وبحيث مكنته من القدرة على إنتاج عدد ضخم من الأصوات المختلفة هياً لكل جماعة بل ولكل جنس ولكل حالة نفسية أن يكون لها أصواتها اللغوية الخاصة بها .

أما عيب الأذن، من حيث أنها جهاز استقبال ، فهو أنها محدودة القدرة فهي تدرك الأصوات التي تتراوح ذبذباتها بين ٣٠ ، ١٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية في الوقت التي يمكن لأجهزة الاستقبال الصناعية رصد الذبذبات التي تقل أو تزيد عن هذا المدى بكثير . ولهذا العيب أهميته الكبرى في المحافظة على حياة الإنسان ، لأن الأذن أفضل جهاز لحماية الإنسان — ولو فرض أن بلغت كفاءة الاذن إلى درجة تستطيع معها سماع كل صوت يقال في مدينة الكويت سواء كان صوت إنسان أو سيارة أو طائرة أو ماكينة لاستحالت الحياة . وكلنا قد عانى من صراخ خمسة من الأطفال عند محاولة النوم أو الاسترخاء .

وفي الاذن الإنسانية عيب آخر له أهميته ، وذلك أنها لا تستطيع ادراك الفروق الدقيقة بين الأصوات ، بل انها تكفي بعدد محدود من الموجات التي تكون الصوت لتحقيق عملية الادراك . ولولا هذا العيب لما أمكنت عملية التفاهم . وذلك لأن صوتي يختلف في تكوينه الفيزيائي عن صوتك وعن أصوات الملايين من ابناء لغتنا . ولو ادركت الاذن كل الخصائص الصوتية لكل فرد منا ، لبالغت في ادراك الفروق التي بيننا وهي من الكثرة بحيث يستحيل اعتبارها ممثلة للغة مشتركة . الاذن بفضل هذا العيب تركز الانتباه على الصفات الصوتية المشتركة بين أفراد

جماعة لغوية واحدة . وهذه الصفات المشتركة هي التي يتحقق بواسطتها التفاهم ، ولو ادركت في زحام من الصفات الفردية لما أدركنا وجودها .

وتنتج عمليات النطق كما ذكرنا بانتاج موجات صوتية مختلفة الأنواع ، فنها ما يمثل الاحتكاك كتلك التي تنتج صوت الشين ومنها ما يمثل الانفجار كما في الباء ومنها ما يكون مخرجه من الفم أو الأنف ومنها ما يكون فيه رنين ينتج عن التضخيم أو الترقيق كالطاء أو التاء ومنها ما يكون مجهوراً أو مهموساً أو غير ذلك .

وبفضل هذا التنوع في الأصوات التي يمكن للجهاز الإنساني انتاجها وبفضل القدرة على تنوع اختلاف الأصوات بعضها إلى بعض ، بحيث تستطيع أن تكون عدداً من المجموعات بعدد قليل من الأصوات ، مثل «عمل» لمع وعلم ، بفضل هذا تكون من الأصوات لغات عديدة تختلف أساسياً عن صياح الحيوان .

وفي الجانب الآخر من عملية التفاهم توجد عملية الإدراك . وتقوم الأذن في هذه العملية بالتقاط الموجات التي تمثل عبارة ما . وتعالجها بطريقة عكسية للطريقة التي تمت في أعضاء النطق ، حيث أن الأخيرة تكون نغمات مركبة من النغمات البسيطة العديدة التي تنتجها الحنجرة وسواها من الأعضاء أما الأذن فإنها تحلل هذه الموجات إلى موجاتها البسيطة مرة أخرى . وتكون هذه الموجات من الضعف بحيث يصل بعضها إلى ضغط يمثل جزءاً من عشرة بليون من الجرام . ولهذا تضطر الأذن لتقويتها . وبعد تقويتها تحولها الأذن إلى موجات كهربائية وتوصلها إلى جسم عظمي بداخلها يسمى الكورتباً به ١٢٠٠ شعيرة تشبه السلك الهوائي لاستقبال الارسال التلفزيوني . ولكل شعيرة طاقة معينة تستقبل موجة من الموجات التي حللتها الأذن وتحملها بدورها إلى المخ لادراكها و يقوم المخ بعملية الإدراك . ولكن العجيب أنه لا يعيد تكوين هذه الموجات إلى اصوات ويركب الأصوات في كلمات والكلمات في جمل . . الخ ، بل انه يدرك الكلام إدراكاً كلياً . وهنا نتساءل عما إذا كانت عملية الأذن التحليلية عملية عابثة لازوم لها . ولكن علينا أن نثرث قبل اصدار مثل هذا الحكم فلا تزال عملية الادراك معقدة مستعصية

على التحليل والفهم .

الخلاصة ان عملية انتاج الصوت تمثلت في حركة اندفاع الهواء في الرئتين . وتحولت الحركة إلى طاقة والطاقة إلى صوت حمله الهواء للأذن حيث تحول الصوت إلى طاقة والطاقة إلى تيار كهربائي أوصلته الأعصاب إلى المخ للقيام بعملية الادراك .

أما العامل المحرك لكل هذه الدورة فيتمثل في تفاعل كيميائي داخل الخلايا العصبية . وينتج عن هذا التفاعل الكيميائي تيار كهربائي ينتقل إلى العضلات ليحركها . ولكن من وراء كل هذا جهاز دقيق للمراقبة والتوجيه . ومن الثابت مثلاً أن عملية الزفير لا تطرد إلا ٤٠ ٪ من حجم الهواء الموجود في الرئة . ولو تجاوزت هذا القدر بقليل لحدث انهيار في الرئة يؤدي إلى التصاق جدرانها والموت . ولولا جهاز المراقبة الذي يحظر المخ بالوصول إلى هذه الدرجة الخطرة وبالتالي يصدر المخ أوامره للأعصاب والعضلات للقيام بعملية الزفير لولا جهاز المراقبة هذا لاستحالت الحياة .

دراسة اللغة اذن دراسة أوسع وأشمل من تسجيل قواعد النحو والصرف والبلاغة والمعروض ، هي دراسة تكشف عن هذا الجهاز الفريد المعقد المسمى بالإنسان وعن هذا الكيان المركب الذي يجتمع ويتفرق وينقسم ويتزايد المسمى بالمجتمع .

رحم الله الرافعي حيث قال : « النخلة السموق نواة مغزونة في بلحة والعالم العجيب تركيب مغبوء في انسان » .

الحرثاق



شعر
فيصل السعد

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

في الصمت المطبق -
هذا الموحل ،
هذا المتعفن ،
أستجدي الشفقة

من يطعمني ،
غفوة ليل تنتشل الأرق المر ،
تدثر أفكاري القلقة
الليل المربك أتعيني -
حايثُ صراخاتي ألنزقة

فالصرخةُ من حنجرَةِ خرساء
 لا تجلبُ للذاتِ المشلولَةِ غير الداءِ*
 والحرفُ دواءُ*
 يا وجعَ الآهاتِ المتيقظِ فوقِ الرُثيينِ ،
 ويا أحزاني الدبقةُ
 خوفاً أن يرْكَلَنِي المرترقةُ
 فالعالم يشنقُ بعضَ الأسماءِ*
 والبعضُ الآخر يسألُ عن ذاك الأسمِ المشنوقِ،
 ومن شنقةِ
 نحن البعضُ المتصورُ جوعاً فكراً ،
 نستنجدُ بالصمتِ ... ونكبو
 نستنجدُ ثانيةً .. نكبو ،
 تحت الأقدامِ الشبيهةِ
 نرسمُ ما ينزفُ الصمتُ الذهني ،
 على ورقةِ
 نحرقها خوفاً منا ،
 خوفاً من حرفٍ يشهدُ زوراً :
 أنا أحياءُ*
 يعاطش الروحُ وبعدَ الماءِ*
 نحن المختبئون بزواويةٍ من صمتِ العصرِ المطبقِ ،
 هذا الموحلي ،
 هذا المتعفنُ .. لسنا أحياءُ*
 أسماءُ أتعبها التجوالُ ،

رَسْتُ فوقَ الْأوراقِ
مَرْقَهَا الْعُوزُ الذَّهْنِيَّ، الْجَوْعُ الْإِمْلَاقُ
نَحْنُ الْمُنْبُودُونَ نَتِيئُهُ بِصَحْرَاءِ الْأَذَاتِ ،
فَمَنْ يَمْنَحُنَا الشَّفَقَةَ ؟
آهْ يَخْنُقُنِي هَمْسُ الْإِشْفَاقِ
لَكِنَّ الْحَاضِرَ - وَاجِعِي -
أوراقٍ مُحترَقَةٍ

□ □



الانسان والبيئة في مسرحيات نعمان عاشور دراسات فنية تحليلية تطبيقية

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

أجزاء الأول
مدلول البيئة المدنية في مسرحية
«المغماطيس»

هناك حقيقة تؤكد أن الفن والأدب والفكر والقراءة والكتابة، لأمعنى لها جميعا بدون حركة نضالية سياسية. ولقد كتب «نعمان عاشور» مسرحية «المغماطيس» في منتصف القرن العشرين، اثر اعتزاله المترك السياسي بعد أن ساد الحياة السياسية طابع العنف الذي توج بحريق القاهرة. كتبها



يكتبها
محمد
مباركي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بعد تشربه الحياة السياسية وسجل فيها موقفاً يسارياً اشتراكياً، فهو يورخ بها للتطور الاجتماعي في مصر ضمن اطار سياسي (١). ولم يكفه — والأوضاع أيامها تتردى من سيء إلى أسوأ — مساهمته بجهد القليل في الحياة السياسية، فحاول أن يثبت الدور الذي كان لابد أن يسهم به، بما يمثله (الدكتور غريب) في المسرحية. واعتزال نعمان عاشور سياسياً — بعد ذلك — ليس اعتزال المتقهقر المهزوم، وانما هو اعتزال المتروى والمفكر، تحاشياً لمواجهة العنف والاضطرابات، فهو رجل بطبعه لا يميل إلى العنف.

كتب هذه المسرحية (المغماطيس) ليعبر بها عن اندماجه في الحياة البيئية والاجتماعية وليبين بها دوره فيها ويرسم حدود مشكلاتها التي هي في

أكثرها مشكلات اقتصادية . ولعل هذه الأسباب مجتمعة جعلته يكتب المغماطيس كما يقول — (٢) بحماس وشغف وبقدرة جيدة على رسم الشخصيات ومعالجة الحوار المقنع القوي ، لينفذ الى حقائق اجتماعية بدهية يشير اليها موضوع المسرحية ، مستعيناً بفهمه للأصول الدرامية وشئون المسرح ، والوعي بالواقع الاجتماعي الذي عايشه وبما اكتسبه من دراسة للاشتراكية وإيمان بها ، وبملاحظة قوية للناس ورصد لتصرفاتهم ، وتأمل لما يدور في عقولهم وما يعمل في مشاعرهم . ولعل السبب في اختياره موضوع المسرحية جاء نتيجة لمعايشة شخوصها في الحياة وفي كيانه ، وقد سبق التعامل معها ، فعرف ماتريد وما لا تريد ، وما يمكن أن تكون عليه ، وعلى الرغم من أن المسرحية تصوير واقعي عريض لقطاعات من الناس ، إلا أن هذا لا يعني أن كل شخوص المسرحية قد جاءت من واقع الحياة اليومية أو المعاشية الشخصية ، فقد تدخل الخيال الفني في عمليتي الخلق والإضافة ، وشخصية (الدكتور غريب) من هذه الإضافة الخيالية أو ماتمثلة الفكرة (٣) .

عالج نعمان عاشور في مسرحية (المغماطيس) موضوعات شتى متنوعة ، فالمسرحية — التي تمثل مطلع حياة الكاتب الفنية المسرحية — غارقة في الآراء والأفكار كثيرة الموضوعات ، وجاء ذلك كله في مواقف درامية من خلال شخصيات تراوحت ما بين البيئة الشعبية والبيئة المدنية . ولعل تفسير ذلك المزيج الذي اختلط في هذه المسرحية جاء نتيجة لبيئة المؤلف الأصلية ، وهي (ميت غمر) التي جمعت ما بين الحياة الريفية والمدنية ، (المغماطيس) تمثل موقف المؤلف « البيئي » المتوازن بين البيئة الشعبية والبيئة المدنية ، في إطار وشكل أسري . ولعل أهمية الانفجار الدرامي — في سبيل تغيير الحياة والارتقاء بأوضاعها للتطور في البيئة المصرية — عند نعمان عاشور ، هو الذي دفع به الى أن يضمه أولى مسرحياته (المغماطيس) أو (حياتنا كده) .

ومن تسمية المسرحية (المغماطيس) يتضح لنا نوع البيئة المحلية التي



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

يصورها نعمان عاشور في هذه المسرحية، حيث يقدم أنموذجاً حياً للبيئة المدنية، ومن الاسم يتضح أيضاً ذلك التطور البيئي الذي يغلب عليه الطابع الشعبي، على الرغم من تنائر شخصيات البيئة المدنية هنا وهناك، فشخصيات المسرحية ليست خالصة الشعبية، إنما هي شخصيات بيئية تتراوح ما بين الشعبية والمدنية. ومع أنها شخصيات بيئية — تجمع كل متناقضات البيئة في إطار الأسرة المصرية — فإن المؤلف يعبر من خلالها عن أفكاره، ويحاول توصيل معانيه. وتعبّر الشخصيات عن نفسها من خلال المتناقضات المحتشدة في أعماقها، نتيجة لتناقضات البيئة المعاصرة للحدث، والمتداخلة في تركيبه الدرامي. كل ذلك يرسمه نعمان عاشور في حدود الشخصية وتكوينها البيئي والطبيعي والفكري. وابتداء من (المغماطيس) نستطيع التعرف على

هذه الشخصية البيئية التي يهتم بها نعمان عاشور ويطورها من بيئة إلى أخرى، فبالإضافة إلى شخصية (الدكتور غريب) في (المغماطيس)، نرى شخصية (عزت) في (الناس اللي تحت) وشخصية (حسن) في الناس اللي فوق) و(سيد) في (عائلة الدوغري) و(نوال) في (صنف أو جنس الحرم) و(راجي حمود) في (سبا أونظه) و(بهلول) في (وابور الطحين)(٤).

وهناك أمر آخر استهدفه نعمان عاشور في مسرحية (المغماطيس)، ذلك أنه بدأ أول علاج للمسألة الطبقيّة التي تفتشت في غضون تلك المرحلة، وسيطرت على فكره. فهو في هذه المسرحية يسخر من اسطورة الحواجز الطبقيّة البيئية، ويوحى — بشكل أو بآخر — بعدم امكانية وجودها أيضاً (٥).

ولعل في حديث نعمان عاشور نفسه عن مصادر شخصياته وكيفية رسمه لها، ثم كتابته المسرحية، دلالة كافية على شعبية هذه الشخصيات وعلى أبعادها، كشخصيات بيئية. ويعطينا هذا الحديث — مع المواقف المرسومة في المسرحية — الدليل على الشكل البيئي الخالص، الذي مزج وخلط من خلاله قضايا عديدة طرحها في هذه المسرحية ذات الموضوعات الكبيرة، وهي محاولة منه لخلق الشخصيات الانسانية بقضاياها المختلفة، يعرضها بقلب انساني ذاتي.

يقول نعمان عاشور: «لقد جاءتني فكرة كتابة (المغماطيس) من المعاشة اللاصقة الدائمة والاحتكاك العميق المتصل بهذا القطاع. فاذا أضفنا الى ذلك معرفتي ودراساتي الدرامية ثم استكلناه بما كنت قد بلغت من وعي اجتماعي متفتح، نتيجة لما انصرم من سنوات غامرة في خضم الحياة الثقافية والنشاط السياسي الذي غرقت فيه إلى الآذان، لما استعصى تخيل مدى ماكنت اتمتع به من رؤية نظرية وعملية تتيح لي من رحابة النظرة مايكفل سهولة بل ونضج الفكرة حين أشرع في كتابتها. وبالفعل كان ذلك ماحدث بالنسبة للمغماطيس. وجاءتني فكرتها بداية، وكما هي طريقتي — التي

اتبعتها بعد ذلك في كافة مسرحياتي التالية - جاءني من خلال الشخصيات، فقد كان يكفي أن أقع على شخصية البقال وشقيقه، ومحل البقالة نفسه، لكي أعيش معها في خيالي وتصوري لفترة، حتى إذا نضجت في ذهني تماماً صورة الحياة لعلاقتها بما يلتفون حولها من الناس، بدأت تتقاطر الشخصيات الأخرى متتابعة، تراقص أمام عيني، فإذا بي أعيش معهم جميعاً في انصهار حار دائم، يدفعني يوماً بعد آخر إلى تسجيل كل خاطر يراودني عن أحدهم، فأقع على شخصية (عطوة أفندي) في صورة كاتب حسابات البقالة، وأقع على شخصية (السي) في صورة خادم البقالة الرئيسي، وهكذا .. ثم يحدث أيامها بالذات أن تجيء لتتقطن في شارع مجاور أرملة وابنتها، (الأم وقر) وشقيقها (الدكتور غريب)، من سلالة عائلة غنية أحنى عليها الدهر، فإذا امامي من واقع متابعتهم بحكم الجيرة مايمكن أن اسميه «البلوك» الثاني من مجموع الشخصيات. وهكذا تروح تتلاحق في واعيتي امتدادات بعيدة لشخصياتهم تصل في أغوارها إلى السنوات المنصرمة من سنوات الحرب العالمية الثانية، سيما بعد أن قُتِمَ الرؤية بشخصية (فرحانة) التي عثرت عليها وشغفلت انتباهها في السوق، وكانت إحدى بائعات الخضار، فاستلهمت منها شخصية الخاطبة بائعة السمن، وهي شخصية ... يمكن اعتبارها من الشخصيات النمطية الشائعة في حياتنا الاجتماعية الطبقية ...

وحين شرعت في كتابتها (كتابة المسرحية) بدأت بالشخصيات التي ظلت تتلاحق في مجموعات، نتيجة المعاشة المتصلة. فلما نضجت وأخذت في كتابة النص لها، كانت الفكرة الأساسية كامنة في واعيتي، ولكنها كانت فكرة عريضة غير مركزة، ولذلك سميت المسرحية - بعد اتمام كتابتها - باسم له دلالة في إيضاح معناها العام، وهو «حياتنا كده». ذلك انني لم أكن قد تأكدت بعد - أو بالأحرى تمكنت - من الامساك بزمام الفكرة،

وانما شرعت أكتب عن تمكن واقتدار، ربما في المعالجة الدرامية وحدها. أعني— تحريك الشخصيات الناضجة المبلورة التي اعيشتها في داخل اطار مسرحي— وانما جاءتني الفكرة الأساسية بعد أول كتابة، بعد أن فرغت من المسرحية كلية على أنها تصوير واقعي عريض للحياة. فلما أعدت قراءة النص المبدئي، ظهر لي بوضوح تعدد جوانبه في داخل اطرار مترابطة من مجموعة الشخصيات...

وهكذا كان التوصل الى الفكرة الرئيسية في المسرحية، فلما شرعت في مراجعتها ثم كتابتها للمرة الثانية، وجدتني أقع على فكرتها الرئيسية في اعماق النص، وكان أن غيرت اسم المسرحية من (حياتنا كده) الى (المغمطيس) وهو اسم يجمع بين طرافة العنوان بقدر ما يكشف عن الفكرة الرئيسية. فكان تجربة «المغمطيس» — والحال كذلك — هي التي وضعت يدي على جوهر البناء الدرامي، التي تبنيه لي موهبة خلق الشخصيات وتحريكها على الورق، وبالتالي فوق خشية المسرح، وهذا الجوهر طبعاً هو الفكرة المحورية التي تدور حولها المعالجة الدرامية أو مايسمى عادة الفكرة الرئيسية» (٦) <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

والبيئة الشعبية هي المصدر الذي اعتمد عليه المؤلف في «حضور» الشخصيات فهي شخصيات تتفاوت شعبيتها وتتنوع بيئتها ما بين شخصيات خالصة الشعبية:

ك: (فرحانة) و(ابو مال) و(السني الفنجري) و(الاسطى النجار) و(الدبشولي صالح)، وشخصيات شعبية غير خالصة، ك(قر) و(عطوة أفندي) وهناك أيضاً الشخصية القادمة من المدينة: ك(دكتور غريب). وعنوان المسرحية فيه الدلالة الشعبية الذي استقاه من مفهوم «طبيب علم النفس» في نظر أهالي البيئة الشعبية؛ فالعنوان جاء بوحى من هذه الحياة المفتوحة التي تصورها المؤلف كما هي في «حياتنا كده» وهذا الأخذ من

البيئة لم يقتصر على المسرحيات فقط ، بل انه اسلوب تعامل به نعمان عاشور منذ عهده بالكتابة الأدبية الفنية ورسم الشخصيات في قصصه القصيرة ، ويؤكد ذلك مايقوله عن نفسه : « اذكر انني ظللت اتابع (بواب عجزو) في المنزل الذي كنا نقطنه ، حتى بلغ الأمر ان كنت أشاركه في طعامه الذي اشتريه له ، لكي اتعرف على شخصيته ، وكان هذا هو المرحوم عم فرج الذي كتبت عنه القصة (الرئيسية) في مجموعتي القصصية الأولى (حواديت عم فرج)» (٧). فهو لايتعامل مع شخصيات البيئة في المسرحية فقط ، بل في أغلب ألوان كتاباته ومن أبرزها القصة القصيرة .

المضمون والشخصيات :

ان موضوع مسرحية « المغماطيس » واسع الاتجاه عريض الفكرة ، الا أنه من خلال ذكر تفاصيلها يمكننا أن نصل — عن طريق التفسير والتحليل والربط بين المواقف — الى الموضوع الرئيسي ذي الاتجاهين :

ان الحياة الاجتماعية في فترة الحرب العالمية الثانية ومابعدها هي الأرضية التي اعتمد عليها موضوع مسرحية « المغماطيس ». والاتجاه الثاني ان المسرحية — بغض النظر عن موضوعها الظاهري — تنصدى للتعبير عن حقيقة رئيسية ، هي بداية ظهور طبقة طفيلية جديدة من أثرياء الحرب ، طبقة تتقدم صاعدة على أكتاف الجموع الشعبية ، مع انها منبعثة منها ، لخلق تكوين طبقي مغاير للتكوين الرأسمالي الذي لم يلحقه الرسوخ — وتعر به التطور — لينطوي في ظلال الاقطاع ويتحطم معه . فالمسرحية تصور تسلط القطاع الخاص وتصور الوضع الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية ، مع ان المسرحية ظهرت على خشبة المسرح مع بداية تطبيق القوانين الاشتراكية ، وبعد المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي فجرها قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ (٨).

امتصت المسرحية الأحداث الجارية في المجتمع آنذاك ، ورسمت ملامح

الحياة المعاصرة في تلك الفترة، حيث تصور المسرحية الواقع السياسي للحياة الاجتماعية قبل الثورة في عهد الباشاوات والاقطاع (٩). وفي المسرحية مايدل على ان حوادثها كانت قبل الثورة في عهد الاقطاع والباشاوات، فهي تصور طبيعة العلاقة بين أفراد هذه الطبقات ورغبتهم في تأكيد مواقعهم السابقة نحو التحرك لاقتناص المواقع المستجدة ليكونوا دائماً فيها وبالقرب من اشباههم من ابناء الطبقات «الارستوقراطية»، حيث تعرض المسرحية صورة الوضع الاجتماعي القائم في تلك المرحلة ومتطلباته (١٠) وما يمثله «الحاج حسنين ابوالمال» صاحب البقالة والسوق السوداء بأبعاده الفردية، والذي يصفه نعمان عاشور في أول المسرحية بما «عليه من سياء المراوغة والمكر والدهاء يغطيها بهدوء في الطبع والملاينة»، وقد تعود (الحاج) من الناس الطاعة، فهو مع (عطوة أفندي) — كاتب المحل — أمر حتى يثور هذا ضده، فيستكين ويرaug، هذا التسلط الاقتصادي في شخص (الحاج) لا يخلو من افراز شخصيات لها تطلعاتها ونفتمتها ورفضها وتمرداها على الوضع الموجود، متمثلاً في شخصية كاتب المحل (عطوة أفندي) الذي لا يدع أية فرصة مناسبة الا ويعلن فيها مسخطه وتبرمه من هذا الوضع الاقتصادي، الذي يسوده الغش والفساد.

لقد طرحت المسرحية نفسها في اطارين واضحين: الاطار الأول (الحاج وأخوه محمود والسني وعطوة أفندي، وموضوع البقالة وعمل البقالة)، والاطار الثاني (الدكتور غريب وامه واخته قر وموضوع زواجها من الحاج حسنين أبوالمال). وقد عمل المؤلف على الربط بين الاطارين أو قطبي قضية المسرحية وموضوعها بشخصية «عطوة أفندي»، والعلاقة التي جمعت بينه وبين «الدكتور غريب» هي علاقة التمرد: فلقد تمرد عطوة أفندي من جانبه على سيطرة «الحاج» كصاحب مال وعمل مستغل، بدأه بصورة تذر ونفور، في الحوار الذي دار بينه وبين «السني» حول المصلاة (١١). ثم يتخطى

النفور الى التمرد والمواجهة المباشرة مع صاحب المحل بعد أن تكشفت أو تأكدت له حقائق يرفض الاستمرار في تقبلها، وهم بتمزيق «كمبيالات» للحاج مبلغ من المال (١٢). وحين تبرز قوة «عطوة افندي» بالمواجهة، تختفي قوة «ابوالمال» وسطوته.

وهذه الثورة من قبل «عطوة افندي» لها سمة التمرد على الأوضاع القائمة، (فعطوة افندي) يمثل شيئاً من القوة في هذا التمرد، وليس هو (عبدالستار افندي) «(١٣) — في مسرحية (محمد تيمور) المستكين المتخاذل الذي قبل الأوضاع الراهنة وتركها تعمل به ماتشاء، و(عبدالستار افندي) لا ينفك يضعف ويضعف، حتى إذا ما ثار فإن ثورته لا تتعدى ابنه وابنته وفي لحظة يعقد فيها مهادنة مع الأوضاع ويستسلم لها، حيث تتسلط الزوجة عليه. ومسرحية (عبدالستار أفندي) تقوم على موقف رئيسي تعرفه الكوميديا العالمية والمحلية حق المعرفة، وهو موقف الزوجة المسلطة والزوج المغلوب على أمره، وما يجري بينها من شد وجذب، فنتج عنه الفكاهة المطلوبة.

ولا تتوقف الثورات ضد (ابوالمال) عند هذا الحد بل تندفع موجة سخط أخرى، تهب عليه من (الدكتور غريب)، وهي لا تتعدى بادئ الأمر غضباً مناسباً للحالة المعيشية وضيق العيش (١٤) الذي يعيش فيه، ثم ينقلب الغضب والسخط الى تمرد يعلنه الدكتور واضحاً، عند اندماجه في البيئة فهناك رغبة ملحة في حياة (الحاج ابوالمال) وهي رغبته في الزواج والخلف؛ وهذا الوضع يجعل الدكتور في موقف مواجهة معه متسلحاً بعلمه وثقافته ومبادئه التي يقف لها المال وأصحاب المال بالمرصاد.

فالْحاج «حسنين ابوالمال» — على الرغم من أنه قادر على تحريك الرجال — إلا أن لديه جانباً خطيراً في شخصيته المسيطرة، وهو شعوره بالنقص لتطور حياته غير الطبيعي ونجده يحس بالضعف أمام «قر» أخت الدكتور ولا تنفعه شخصيته الآمرة ولا مكره الهادي، وانما هو لها طائع

و«فرحانة» (البلاغة - الدلالة) وكاشفة أسرارها، تعرف من أين تأكل
 كتفه وكشف أمثاله من الرجال، كما جاء في وصف المؤلف لها (١٥)
 وتعرف نقطة الضعف عند «الحاج ابوالمال» وتعرف ما يحتاج اليه، مع وجود
 المال والثروة والسلطة، فهو انسان تزوج يبحث عن ظله بامتداده في طفل لم
 يحققه ذلك الزواج، فزواجه من «قر» بالنسبة له مشروع استثماري لا بد
 منه. وهو لا يتكلم إلا لغة الحسابات والأرقام مثابراً على انجاح هذا المشروع،
 معتمداً على مركزه كصاحب مال وما يبدو عليه من قوة الشخصية التي
 يكسبها له مركزه المالي، وهو الحريص على أن يكون دائماً في هذه الصورة
 لاتمام مثل هذا المشروع (الصفقة) وهو زواجه من «قر»، إلا أن مثل هذه
 الصفقة يجب أن يسبقها «صفقات» واتفاقات. مع «فرحانة» التي تساومها
 على الكبيالات المتبقية عليها من ديون سابقة، فتقوم بخصم المئات والألوف،
 بمثابة سمسة من الحسابات التي تديرها له، (فقر) ورقة رابحة في يدها
 تلوح بها في وجه (الحاج ابوالمال) اثناء مفاوضاتها معه ومساومته على تلك
 الفتاة التي تسكن حي (بيت عجور)، المنتمية الى طبقة متوسطة الدخل بعد
 انحدارها من طبقة غنية جار عليها الزمن (١٦). ونجحت (فرحانة) في
 مساومتها ومفاوضاتها مع (الحاج) لانجاز المشروع، الا انها خدعته بتصويرها
 سهولة الزواج من «قر» فليس الزواج من «قر» بهذه السهولة، فهناك عدة
 جهات عليه أن يتغلب عليها قبل الحصول على «نور القمر»، هناك أخوها
 «الدكتور غريب» الثائر، وهناك ثورة «عطوة افندي» ضده شخصياً .

ان ثورة «عطوة افندي» لم تقف عند حد الرفض في العمل لدى
 (الحاج) بعد أن كشف ألامعيه، فهو يرى انه بمفرده لا يستطيع التغلب عليه،
 ومن ثم فلا بد من (ابومال) آخر يستعين به على الحاج ابوالمال، وليكن أخاه
 (محمود ابوالمال)، يؤلبه على (الحاج) منتقماً منه. ومع استسلام «عطوة

افندي» لفكرة الانتقام (١٧)، إلا انه فشل في تأليب (عمود ابوالمال) على أخيه (الحاج)، لأن (عمود) الوديع الطيب، ليس مؤهلاً للعنف والمواجهة، ومن الصعب — وهو بسليته هذه — تحويله الى شخصية اصطدامية على الرغم مما بدا في موقفه من بعض الجدية، عندما اتضحت له أبعاد اتجاهات أخيه نحو البنت «قر»، حيث تنكشف أمام (عمود) حقائق مبهره وقاسية عليه، تفسر السبب الحقيقي في رفض أخيه (الحاج) من زواجه هو من «القمر» وتدفعه بالتالي الى محاولة التخلي عن سلبته وتبعيته لأخيه (الحاج). كما اتضح لمحمود ابوالمال ان الجبهة التي سيحارب فيها لا تقتصر على منافسة اخيه (الحاج) في زواجه من (قر)، «فالقمر» تنجذب نحوه أطراف عديدة مختلفة البنية، مع تباين المستويات والاتجاهات فيها، فهناك مأمور الضرائب الشاب (عبدالسلام) الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره فهو يريد (القمر)، وقد عمل جاهداً في وزارة التربية لكي تعمل (قر) كمدرسة، وتنقل الى مدرسة قرية من الحي (١٨).

لقد أنهى المؤلف الفصل الأول مركزاً على عنصر المتناقضات، الذي تشابك فيه شخوص المسرحية في البيئة، مبرزاً تلك العلاقات الإنسانية — المرسومة والمنظورة — بين أفراد الحياة البيئية المتباينة في اتجاهاتها، مبيناً إلى أي مدى يمكن أن تذوب الفوارق وتتعايش الطبقات فيما بينها. ولم يفته في نهاية الفصل أن يقع لومه على (قر) البنت المتعلمة فقال عنها في بداية وصفه للشخصيات المسرحية النسائية انها «من اسرة قديمة عريقة، ماتت عائلتها ولم يخلف لها شيئاً، امضت صباها في شظف، لا تملك هي ووالدها شيئاً، ولكنها نالت قسطاً من التعليم، فحصلت على شهادة التدريس، وهي بدلاً من أن تتحرر من تأثير عائلتها وبيئتها الراكدة والفكرة الاجتماعية السائدة فيها عن المرأة في المجتمع — على انها متاع ومحور لانتفاف الرجال من حولها — فانها تفضل أن تحافظ على حطة وضعف المرأة المصرية الراهنة

ووضعها المقيت ، وهي بذلك لا تكاد تفترق عن مثيلاتها ، حيث ان كل مها محصور في الحصول على زوج غني مها كانت صفاته ، المهم أن يوفر لها ما أهلها له ثقافتها ومالم تمكنها منه ظروف عائلتها الاقتصادية من عيشة راقية فارغة تنعم بها الارستقراطية المصرية» (١٩). ففي شخصية (قر) تراوح ما بين هذين المزاجين : المرأة الأنثى الباحثة عن الزواج ، والمرأة التي لا تستطيع أن تقبل الزواج الذي ارغمتها عليه حالتها المعيشية وعقليتها الرجعية ، وشخصيتها الانشوية الراكدة ، فهي بنت (البية) بكل معانيها .. وبنت (البية) لا يناسبها إلا صاحب النفوذ والمال المتحرك اليها بقوة ورغبة وحاجة ، الا وهو (الحاج حسنين) الذي ينجح أخيراً في الزواج منها .

و«الحاج حسنين ابوالمال» لا ينال هذا النجاح بسهولة ، فهو الى جانب ما كان يدفعه كرشوة (فرحانة) ، فقد اصطدم بعناد (الدكتور غريب) وثورته وتمرده ، بعد أن وقف ضد هذا الزواج ، كجزء من موقفه العام من هذه البيئة الشعبية التي يتحكم فيها كثير من القيم الفاسدة البالية ، خاصة وهو الدكتور القادم من بيئة غريبة . ولم يكن (الدكتور غريب) الذي يقف وحده ضد «الحاج حسنين وزواجه من قر» فقد وقف ضده كذلك : (عطوة افندي) و(محمود ابومال) ، ومعهما السني ، إلا أنهم لم يقفوا هذا الموقف بقصد محاربته فقط ، انما كانوا في حقيقة الأمر يمثلون تصور المؤلف الموضوعي ضد هذه الفتاة المتعلمة المتخاذلة ذات الطموحات الهشة العالية التي تحدد منظورها في الحياة . فالمؤلف قد أنهى الفصل الأول ليضع في فم كل واحد منهم عبارة تبين تبرمه وتذمره من هذا الزواج .. فان كان هذا الموقف يمثل موقفهم ضد (الحاج) في مظهره ، إلا انه في أعماقه وفي حقيقته يمثل رأي المؤلف نعمان عاشور — من خلال هذه المسرحية — في المرأة . فمسرحية (المغماطيس) الى جانب انها تناقش موضوع استغلال القطاع الخاص للشعب ، فانها تناقش ايضاً موضوعاً آخر هاماً ، الا وهو تكوين المجتمع من حيث الطبقات ونظرة كل

طبقة الى الأخرى : انه يرفض أن تكون الفتاة المتعلمة «مش قوي»، بتلبس افرنجي وبتقرأ فرنساوي»، على حد تعبير السني في المسرحية (٢٠)، فعليها أن تقبل بواقعها وتعيش في حدود منطق الفكر والعلم، دون أن تنجذب وراء تطلعات تفقدها قيمتها وتجعلها متعالية على بيئتها، والا «تبقى واحدة متعلمة بالشكل ده وتقبل تتجوز واحد قد أبوها» حسب رأي «عطوة افندي» (٢١)، لتصبح ضمن (وما ملكت ايمانكم)، فتعود عبودية الرجل للمرأة والرجوع بها الى عصر الحريم، فالمؤلف يناصر قضية المرأة ويطالبها بالتححرر والاستقلال الذاتي بالعمل والكفاح، دون خنوع لمتطلبات طبقية تسقط القيمة العلمية والفكرية للشخصية الفردية، وبالتالي فان مثل هذه (الفتاة) المتعلمة يجب ألا تترك نفسها لتكون بمثابة «قر» لكل رجل ولكل نفوذ، والا تجعل من نفسها لقمة سائغة للتاجر المرابي أو للشخص الساذج أو للموظف الانتهازي السليبي (٢٢).

لقد غاب (الحاج ابوالمال) في نهاية الفصل الأول، واختفى مع (فرحانة) مدبرة أموره. ولعل في هذا الاختفاء إشارة مبطنه الى القيام باتفاق وخطة مشتركة لمحاصرة (الدكتور غريب) المتمرد على تلك القيم الرخيصة السائدة في بيئته، خاصة وان (عطوة افندي) سارع للانضمام الى (الدكتور غريب) الشائر المتمرد ضد (الحاج ابوالمال) مما دفع (ابوالمال) نفسه الى أن ينظم صفوفه ويعكم جبهته ضد الجبهة المضادة. وكان على (الحاج) أن يواجه تمرد الدكتور وثورته بأسلوب آخر غير القوة التي استعملها مع (عطوة افندي)، وآثر جانب الملاينة والمكر والخداع اللذين يتصف بها شخصه والحرب تغيير مواقع، ومن ثم أخذ يبحث عن جوانب الضعف في حياة الدكتور فعلم انه يعاني من عدم وجود عيادة مناسبة يجعل منها ميدانه لمعالجة امراض البيئية. وبدأت اغراءات الحاج «بلمعان» مفتاح شقة نظيفة فاخرة يمكن أن يتخذ منها عيادة لعمله كطبيب. ان ثورة (الدكتور غريب) في نظر «الحاج» جنون، وهذا

الجنون له وجه آخر عند (ابوالمال)، فهو يمثل شيئاً من الرفض وهذا الرفض يمثل في ذاته ثورة وتمرداً على مفاهيم هذه البيئة، مما جعل (ابوالمال) يقف مثل هذا الموقف من المهادنة والاعراء دون أن يفهم أبعاد رفض الدكتور وثورته. وكان طبيعياً أن يرفض «الدكتور غريب» مثل هذه الاعراءات، فلا يترك (للحاج) اية نقطة ضعف في نفسه قد يستغلها.

والدكتور غريب يشبه شخص (اسماعيل) في قصة «قنديل ام هاشم» (٢٣): حيث يرفض «الدكتور» الاستسلام والخضوع لتيار العاصفة، ويستمر في معتركه ضد البيئة ومفاهيمها البالية، محاولاً معالجة ما بها من أمراض، على الرغم من أنه قد مرت عليه لحظات من التعالي، الا انها لحظات لم تصل الى درجة النفور والبيروقراطية والنظرة على قيمتها المتعجرفة التي عامل بها «اسماعيل» البيئة الشعبية في «السيدة زينب» متعالياً على قيمها ومبادئها الدينية، على الرغم من اتفاقها (اسماعيل وغريب) في خط المواجهة والتصدي للتخلف، ولكن بأسلوبين مختلفين، فعلى الرغم من تأثر نعمان عاشور بطل القصة، الا اننا نجد (الدكتور غريب) ينحني ويرضخ تارة، ثم يرفض او يعاند تارة أخرى، ويساير ويتزهد، يتأقلم ويضاد في شيء من التعالي دون انهزامية أو استسلام (٢٤). اما بطل «قنديل ام هاشم» فانه يتخذ موقفا صارماً بنظرته الى القيم الدينية في البيئة الشعبية.

وتبدأ متاعب الدكتور «غريب» تظهر مع بيئته الشعبية، التي يرح فيها الكثير من الأمراض الاجتماعية: كالجهل والفقر والجمود. انه وسط بيئة متخلفة ترى الطبيب النفسي على أنه: «منوم مغناطيسي» (بتاع مندل)!! والحق ان مثل هذه البيئة لا يعالجها علم النفس بقدر ما هي في حاجة إلى اصلاح اجتماعي يقوم على ازالة اسباب التخلف التي ليس اساسها شيوع الجهل فقط وانما وجود الفقر ايضاً. ويواجه (الدكتور غريب) متاعبه مع البيئة ويقف منها محارباً ضد ما يحكمها من عقليات وتطلعات متخلفة (٢٥)

بأفكارها الرجعية وتحركاتها الجامدة ومفاهيمها الضيقة الإدراك، لأنه يرى ان قيمة الإنسان بعمله، فهو يرفض الجمع مابين حياة الإنسان الخاصة وبين عمله، ويطالب بالتححرر الاقتصادي للمرأة. وهذه أفكار تقدمية جلبها معه من البيئة التي عايشها في أوروبا (٢٦). فهو «غريب» بأفكاره واتجاهاته الجديدة على أهل البيئة، ثائر على مفاهيم من هدم للقيم، وفي الجانب الآخر موجة من الحرب وعدم الاقتناع من الأهالي أنفسهم قامت ضده وضد علمه وعمله ودوره، بل كفران بالعلم نفسه (٢٧).

ويتحول الصراع من قضية اجتماعية خارجية الى قضية فردية شخصية تمس مبادئ الدكتور الثائر، نتيجة لموقف اسرته المشجع لزواج «قر» من «حسني ابوالمال»: فهذه الأسرة الفقيرة المنحدرة من أصل بورجوازي مازالت تحلم بتطلعاتها وبعودتها الى الحياة البورجوازية، ففضيبتها منحصرة في الدعوة الى التخلص من هذا الفقر والدخول في «صفقة» مالية تعيد لها حياة البيروقراطيين المنحدرة منها. الا ان دعوتها هذه تواجه بوجود عنصر الشد والتضاد المتمثل في رفض «الدكتور غريب»، فان كان تساؤل «قر» في آخر الحوار (٢٨) يمثل حيرتها وميلها في تحقيق مثل هذه «الصفقة» الا انه تساؤل ينم — وبصورة أعمق — على التخوف من موقف «غريب».

واذا كنا نبحث عن معادل يمثل المؤلف في آرائه بهذه المسرحية، فان بحثنا لن يتجاوز «الدكتور غريب» حامل أفكار المؤلف (٢٩): فالمطالبة بتحرير المرأة والدعوة الى بنائها اقتصادياً، بناء ذاتياً، والاستقلال الذاتي لها، دعوات وموضوعات منتشرة في هذه المسرحية، التي تنثر فيها الأفكار، حتى تغرق فيها وفي كثرة الآراء بها، حيث تصور المواقف فيها ملامح تلك المعوقات الانسانية البيئية التي تعترض عملية البناء. فبيئة حي (درب عجور) مليئة بأمراض اجتماعية أكثر من كونها أمراضاً نفسية، والتي جاءت نتيجة للفقر المتفشي والجهل المنتشر فيها. فتل هذه البيئة التي «تغط» في

أمراضها الاجتماعية — غير الصحية وغير النفسية — ليست في حاجة إلى علم النفس الذي يريد أن يقدمه لها «الدكتور غريب»، وهو يقف في مواجهة تلك العادات والتقاليد السائدة في هذه البيئة، رافضاً ذلك التفاوت الطبقي، وكارها لذلك التعالي، مندداً بتلك الحواجز الوهمية القائمة بين الناس، فهو لا يحب (الألعاب دي) (٣٠) ولا يخضع لتلك البيئة ولا يستجيب لنداءات الاغراء التي قد تتحقق له عند موافقته على زواج اخته من (الحاج)، وهو في محاربته لأمراض البيئة الاجتماعية، قد طبق نظرياته العلمية، محاولاً الموازنة بين ما هو مطلوب وما هو مرفوض علمياً ومرفوض بيئياً: فالتحقيق الذي أجراه مع «ام سنية» (٣١) لم يأت به المؤلف لحتمية درامية منطقية فقط، بل اراد منه أن يطوف بنا من خلاله داخل بيوت حي (درب عجور) لتظهر صورة العلاقات السائدة داخل منازل أهالي الحي وأسرها، فنزل «ام سنية» نموذج حي لأكبر قطاع من منازل سكان «الحي». ومنزل (الدكتور غريب) نفسه نموذج آخر لقوم آخرين. والحوار الذي دار بين الدكتور واخته حول الزواج من (أبوالمال) (٣٢) لا يكشف عن الموقف الواضح للدكتور من قضية هذا الزواج فقط، ولكنه يعطينا كذلك صورة أخرى من صور التخلف الفكري والرغبة في القفز الى المصالح، وانتهاز الفرص عند أهالي هذه البيئة المدنية.

ان «قر» لم يكن مجيئها إلى أخيها «الدكتور غريب» كي تأخذ رأيها كما ادعت، بل كانت تنتظر أن تأخذ موافقته فيما نوت القيام به فعلاً! و«الأستاذ عبدالسلام» — المنافس الآخر في الزواج منها — لم يكن ذا ثقل كبير كي يفوز بها، فهزيمته متوقعة في حرب ليس كفواً فيها، فهو لا يملك مركزاً مالياً، ولا هو سند قوي لها، حتى دوره في مساعدتها لتعمل مدرسة في مدرسة قريبة من المنزل، لم يعد مطمحاً لها، بل ان الوظيفة لاقيمة لها عند المرأة بعد أن تتزوج من رجل غني، فهي ان كانت تريد الوظيفة، فانها

تريدها طلباً للمال وكوسيلة تحقق لها حياة أفضل، وعند أصحاب المال تجد الحياة المترفة الناعمة، وأقرهم اليها (أبوالمال .. الحاج)، ومن ثم قررت الزواج منه.

وحقق (أبوالمال) النصر أخيراً، وتساقط منافسوه الواحد تلو الآخر؛ من (محمود) الطيب الساذج، الذي لم يعرف نوع السلاح المناسب لمثل هذه المعارك، الى اعوانه من (عطوة افندي) والأستاذ «عبدالسلام» السليبي الانتهازي، مع تراجع (الدكتور) عن مساعدته، وترك المسألة اختيارية لاخته «قر» التي رضخت لاغراء المال واختارت أخيراً (الحاج) الرجل الغني القوي المتسلط، زوجاً لها.

ولا يتركنا نعمان عاشور نتخيل وضع «قر» كيف يكون، فهو يرسم لنا كيف بدأت تستنزف أموال «الحاج» انتقاماً من حياة الفقر وتحقيقاً لما كانت تحلم به مع ترفعها عليه لتشعر بأنها «تفضلت» عليه بالزواج منه (٣٣) وهي رافضة للدور الذي يطلبه منها هذا الزوج المتطلع إلى «خليفته» و«امتداده» لكي يواصل الطريق من بعده. فيصطدم (الحاج) بهذه «المرأة» التي تحرمه من أبسط حقوقه الزوجية، مما يفوت عليه تحقيق مثل هذا الخلف ... وهو وان كان قد حرم من حقوق الزوجية الطبيعية فقد حرّمته حتى من حق الطاعة والولاء له كزوج فهو لا يعلم عنها متى تخرج ومتى تعود ومن هم معارفها والذين يرتادون البيت، أو الذين تذهب هي اليهم، وهذا يقلل من قيمته رجلاً تكمن فيه شهوة السطوة.

وهذا الوضع الأسري (٣٤) يقلل من شخصيته ويجعله متدمراً من حياته الجديدة الغربية عليه وعلى تقاليد بيئته الشعبية التي تنكر لها وتنكر لعمله بسببها بزواجه الجديد الفاشل، لأنه زواج لم يقم أساساً على التكافؤ، انما قام على «حسبة» كلها مغالطة، مارسها الطرفان بعضهما على بعض، والحاج «حسنين أبوالمال» بشخصيته الماكرة المراوغة الجشعة، يذكر بشخصية

(عبدالوجود) التي قدمها لنا المؤلف نعمان عاشور في قصته القصيرة «كلاب وخنازير» (٣٥).

ويتحرك «الدكتور غريب» الى «الخطاطة عزيزة» (٣٦) ليتزوجها ويتخذ من زواجه بها وسيلة لغاية تختلف عن غاية الحاج في زواجه من «قر»، بعد أن رغب الدكتور في العيش بعيداً عن حياة أسرته الجديدة الغارقة في خيرات «الحاج» ونعيمه، مفضلاً «درب عجور» عن «فيللا جاردن سيتي» والحياة المترفة فيها، رافضاً اغراءات (الحاج ابوالمال) المتمثلة في عيادة في «قصر النيل» (٣٧). وعندما تكشف «فرحانة» لأسرة الدكتور عن هوية هذه الزوجة تقف الأم والبنات موقف الرفض من مثل هذه الزيجة، لأنها لن تحقق نظرتها الفوقية في توفير حياة مترفة تكون امتداداً — أو بديلاً — لحياتها المالية الحالية. فالكفاح — وهي كلمة ليست موجودة في قاموس حياتها — أسلوب لا يتعاملان به؛ إنها يريدان الحياة الجاهزة والثراء السريع (٣٨).

لكن «الدكتور غريب» يريد من «الخطاطة عزيزة» العون والمشاركة في بناء الغد والمستقبل مع أمهاتهن بالخلف والامتداد، فهو يرى في الزواج وسيلة توصله الى غاياته، فهدفه من زواج مناسب كفاء — بانسانه من بيئته وطبقته — أن يبني معها الحياة والمستقبل، وطبيعة موقف الأم والبنات الراض لهذا الزواج، تقابلها طبيعة رفض الدكتور لموقفها من زواج اخته من (أبوالمال)، خصوصاً وهو المتمرد على تلك الحياة التي تحياها الأم وابنتها، فهو يكره هذا التسلق السريع على «اكتاف» الفرص، ويسخط على انتهازية المواقف، فيتمسك «بعزيرة الخطاطة» التي «سيفصل» معها ويبني بها الحياة الجديدة في مصر الجديدة (٣٩). لقد تماسكت أيدي «عزيرة» و«الدكتور غريب»، لبناء مستقبلها في «مصرهما» الجديدة التي لا تعترف بالأصل انما الإنسان بعمله وكفاحه وجده في عملية البناء، كما لا تقم

للطبقات والطبقية وزنا، انها في انتظار الثورة التي قدمت عليها وعلى طبقات الشعب الكادحة، مع فجر يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، كرياح تدق أبواب الرأسمالية المستغلة الجشعة، امثال (الحاج أبوالمال)، وتقلع كل ما تبقى من الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع الواحد.

ان «الدكتور غريب» (٤٠) هرب «بعزيزته» كما هرب (الحاج) بشخصيته المنهزمة الا ان لكل وجهة سببا: «فغريب» اندفع ليبنى حياته بعد أن تمرد على تلك الأوضاع الفاسدة، أما (أبوالمال) فقد شعر بأن هذه الأسرة لن تحقق له مطلبه في مولود يستمر امتداداً له، وعلاوة على ذلك فقد شعر انها قد تقضي عليه وعلى «بقاياها» ومافيه من ملامح بيئته الشعبية و«قيمه» التي تعلمها فيها.. انه يندفع مسرعاً طالباً حماية بيئته التجارية خشية أن يبلعه «طوفان» الرفض، خاصة ان الثورة الاجتماعية الشعبية الجماهيرية تدق الأبواب، محاولة ذلك حصون الرأسمالية المستغلة والاحتكار، رافضة شراء القيم والمبادئ وجهد الإنسان بالمال. فلم يعد سلاح مثل هذه الطبقة وهو (الفلوس) — والحال تنذر بالخطر عليهم — ذا قيمة أو فعالية أو تأثير على أمثال هؤلاء الضاعدين المكافحين، الذي يرى (الحاج حسنين أبوالمال) أنموذجاً لهم في شخص (الدكتور غريب) وزميلة كفاحه (عزيزة الحياطة).

ولعل في انتهاء المسرحية دون أن يخلف (الحاج أبوالمال) ذلك المولود المنتظر، اشارة مبطنة من المؤلف (نعمان عاشور) الى انقراض أمثال هؤلاء المستغلين، أو قرب انقطاعهم، والأمل في عدم انتشارهم، وخاصة ان الثورة قد جاءت واضحة قوية من طبقة «الناس اللي تحت» في شخص «الرسام عزت» الذي هو نفسه «الدكتور غريب» في «المغماطيس» وامتداداً له بعد ان عرف حقيقة مواقفه. ولعلنا نجد زوجته (عزيزة) في شخص زميلة كفاح (عزت) في العمل، وهي (لطيفة بنت الكساري) القادمة من طبقة

«الناس اللي تحت» كشخصيات ثورية، فسرحية (المغماطيس) لاتخلو من المد الثوري والسياسي، سواء في اشاراتها الصريحة عن فساد النظام الحكومي والحياة الحزبية والبرلمانية، أو في دلالتها في بناء المستقبل الوطني القادم والقائم على اكتاف الطبقة المتوسطة والشعبية فيما بعد «كمغماطيس» تجذبهم ثورتهم ورفضهم للأوضاع القائمة الى التطلع الواضح نحو شمس المستقبل ونوره المشرق، الذي يولد فيه ومعه الإنسان الجديد عند بناء مصر جديدة.

هوامش :

- (١) مسرح نعمان عاشور: مسرحية (المغماطيس) ١١-١٠٤.
- (٢) في مقابلة شخصية جرت في ١٦/٣/١٩٧٧ (مسجلة ومخطوطة).
- (٣) المسرح حياتي، نعمان عاشور: ٩٨ و ٩٩.
- (٤) الملهاة الريفية الساخرة التي صورت وعي المؤلف بالبيئة الريفية.
- (٥) تجد ذلك عند الحديث عن المضمون والشخصية في هذه الدراسة.
- (٦) المسرح حياتي: ١٤٧ و ١٤٨، ١٥١ و ١٥٢.
- (٧) المصدر السابق: ٩٦.
- (٨) كتب المسرحية في أكتوبر عام ١٩٥٠ وعرضت عام ١٩٥٥، ثم أعاد المؤلف صياغتها في مسرحية (عطوة افندي) - قطاع عام - عام ١٩٦٦ وقدمها «المسرح الكوميدي» في نفس العام.
- (٩) مسرحية (المغماطيس): ٨٦، ٨٧.
- (١٠) المسرحية: ٩١، ٩٢.
- (١١) المسرحية: ١٨ - ٢٢.
- (١٢) المسرحية: ٢٩، ٣٠.
- (١٣) في مسرحية (عبد السار افندي): كتاب «مؤلفات محمد تيمور»، ج ٣ من (المسرح المصري): ١٠٧ وما بعدها.
- (١٤) مسرحية (المغماطيس): ٢٢ - ٢٥.
- (١٥) في مقدمة المسرحية: ١٤.
- (١٦) المسرحية: (الفصل الأول): ٣٩ - ٤٣.
- (١٧) المسرحية: ٣٣ - ٣٨.

- (١٨) المرحية : ٣٩ - ٤٣ .
 (١٩) مقدمة المرحية : ١٣ ، ١٤ .
 (٢٠) المرحية : ٣٩ .
 (٢١) المرحية : ٤٠ .
 (٢٢) المرحية : ٤٣ .
 (٢٣) ليحيى حقي .
 (٢٤) المرحية : ٤٥ - ٦١ ، ٦٣ - ٨٣ .
 (٢٥) المرحية : (الفصل الثاني) ٤٨ .
 (٢٦) المرحية : ٥٠ .
 (٢٧) المرحية : ٥٤ - ٥٧ .
 (٢٨) المرحية : ٥٤ .
 (٢٩) مأخوذ عن مسرح بيراندللو .
 (٣٠) المرحية : ٤٥ - ٦٥ .
 (٣١) المرحية (الفصل الثالث) ٦٣ - ٦٨ .
 (٣٢) المرحية : ٧٠ ، ٧١ .
 (٣٣) المرحية : (الفصل الرابع) ٨٦ - ٩٠ .
 (٣٤) المرحية : ٧٢ - ٨٩ .
 (٣٥) (أزمة أخلاق) مجموعة قصصية .
 (٣٦) المرحية : ٩٦ .
 (٣٧) المرحية : ٩٧ .
 (٣٨) المرحية : ٩٩ .
 (٣٩) المرحية : ١٠٣ .
 (٤٠) المرحية : ١٠٣ ، ١٠٤ .



حكاية الزبي الهراس



قصة
د. محمد
حسن
عبد الله

أخيراً، بعد موجات متعاقبة من السكون المتحفز والصخب المتوتر، استسلم الجميع للصمت، فور تسرب الأخبار بأن المصباح الأحمر قد استراح بدوره . بعد قليل يغادر الوكلاء المساعدون عائدين إلى مكاتهم، ويمضي الوكيل بالحركة إلى مكتب الوزير، وتتكشف بعد ساعات أو بعد دقائق كل الأسرار، فتشب حرائق وتخمّد أخرى . خبر واحد تسلّل في غير رفق من

مكتب الوكيل المساعد للشئون القانونية، انتشر في طوابق المبنى الكبير، وكأنه غاز الكلور، يتحدد أثره بالمسافة والنسبة، لكنه قطعاً غير مريح. أما الوكيل المساعد فإنه يعرف حدود وظيفته، وتقاليده مثل هذا الاجتماع السنوي الحظير وما يستلزم من كتمان. مع هذا لم يملك نفسه حين ضمته جدران مكتبه أن يلقي «الدوسيه» الأخضر، وكان ضمته الصورة المقترحة للترقيات، فيصفع به بلور المكتب المترامي متأففاً، وكرشه المستدير ينبعج ويندلق وينخسف حسب مقتضيات الحركة بين الكرسي والمكتب: «اعتبارات؟! نعم، كل الدنيا ماشية على الاعتبارات. لكن .. الزكي المراس !! هذا إسقاط لجميع الاعتبارات». كان الساعي الخاص يجري في تيار الوكيل المساعد ليكون رهن إشارته، دخل الحجره لسحب الباب الزجاجي، فسمع — وقد أشرع أذنيه — اسم المراس، لم يجد من القرائن ما يدل على شيء. جاءت الفرصة إليه برجليها حين دخل بالقهوة. وضع الفئجان بحركة حذرة من يديه وعيناه تنلصقان، فرأى الاسم صراحة في رأس الكشف. بحث عن فرصة يتصل فيها بالزكي بك ولكنه لم يستطع مبارحة مكانه، همس بالخبر إلى من يستطيع ريثاً يتمكن من تقديم التهنة بنفسه. انتشر الخبر في أسلاك الكهرباء، نشب الحوار كما تعترض شوكة السمك مدخل البلعوم. حافظت قسما الزكي المراس على هدوئها، لم تتحرك في وجهه عضلة واحدة. قال وهو يسترخي في مقعده الوثير: «لقد أيقنت دائماً أن التهريج لا يجدي، وأن العمل يفرض نفسه على الجميع».

لقد أعطى للساعي جنباً كاملاً لقاء البشارة، لكنه لم يظهر أي فرح بها أمام الموظف الصغير، بل رفض أن يشعره بأن المنحة المالية غير المعتادة في مقابل ما أفشى من سرّ، إذ قال: «خذ هذا واشتر حاجة حلوة لأولادك»، وكبح لسانه فلم يتورط في أية وعود إذا ما بان له صدق الخبر.

وأقبل معاونو الزكي المراس من كبار موظفي إدارة التخطيط، فلم

يتحفظوا في إظهار سعادتهم بما نال مديهم من تقدير، ونادى منادهم بأن هذا تقدير لجميع العاملين بالإدارة، وإذ ترنم أحدهم مهنئاً: «عقبى للوكالة يا سعادة الوكيل المساعد»، فإن أقلهم خطوة لديه رفع عقيرته مسجلاً موقفاً أكثر جسارة: «قريباً نهىء بالوزارة، نبارك لأنفسنا». كان هذا الأخير يعاني حالة إحباط حادة. اكتشف موهبة القيادة لايحتاج الى خبرة أو حصافة، مثل اكتشاف الشمس .. الأعمى يدركها، الشخص القيادي يفرض نفسه بسعة إدراكه ونفاذ بصيرته في فهم مشكلات العمل، وقدرته على اتخاذ القرار المناسب، واكتشاف الطرق الكفيلة بتنفيذه. الشخص القيادي يجد انقياداً تلقائياً من جميع العاملين معه، أو أكثرهم، استجابة لهذه الجوانب التي لا يستطيعون انكارها فيه. فأين هذا كله من الزكي المهراس؟! إن أقصى ما يرشحه له من عمل أن يكون ملاحظاً في إحدى دور السينما، يلبس «الوينيفورم» الأزرق، ويقابل الرواد على باب القاعة المظلمة، يرقص الشعاع الضوئي على الكرسي المقصود، في حين تمتد يده الأخرى تنتظر البقشيش!! فأى عمى طامس استولى على أصحاب القرار؟!

وهش المهراس اللقاء المتعدي، وفكر لحظة في أن يبدي تحفظه على خبر الترقية، ربما كان مجرد حدس أو أمنية، ولكنه سرعان ما تذكر أحد شعارات العصر المتداولة: «الحرب النفسية». إن أي تردد سيلقي ظلالاً من الشك في نفوس موظفي إدارته، ويسبب في ما بعد إلى وضعه الراسخ في رعاية الصمت وتشابك المواجهات والظنون. وأسوأ احتمال أن تكون أكذوبة سخيفة أراد بها أحدهم أن يعلن عداوته، فهذا التأييد من إدارته يكون أداته في التظلم ومناوأة من يحتل المكان.

• • •

في أول قاعة على يسار الداخل الى مبنى الوزارة يقبع رمضان أفندي في أقرب ركنٍ إلى الباب، إنه يفتر موقعه هذا تفسيراً مرحاً لا يخلو من مرارة،

بأنه أقرب نقطة إلى التخرج من باب الوزارة، إلى التقاعد، تمهيداً للتخرج من باب الدنيا .. إلى حيث ألفت !! كان في انتظار الدرجة الثالثة ليحال معها إلى المعاش، والقصد منها في منطق الرؤساء يدخل في باب الإحسان، وفي رأيه اعتذار سخيف يأتي في غير موعده. حين بلغه خبر ترقية المهراس وضع نظارته السمكة في الدرج، و«بربش» عينيه وهو يسمح الأكياس المنتفخة تحتها: «لا أزال أذكره، سعادته لا يمرّ على قسمنا فهو ليس من مقامه، ولكنه حين التحق بالعمل منذ أكثر من عشرين عاماً كنت في إدارة التعيينات، ألقاه علينا مكتب القوى العاملة مع غيره كما تلقي الرياح بالغبار. حين رأيته لفتني منظر وجهه، قلت في نفسي: أي صباح هذا؟ رغيف بدون خيرة ناقص نفج، يصلح حلاقاً أو صبي ترزي، لكنه أدهشني حقاً حين تكلم. قال في برود: سيادتكم كاتب هذه الرسالة؟ نظرت في الورقة. قلت: هذا الاستدعاء، نعم. قال: من فضلك تراجع الأوراق الأصلية ستجد اسمي الزكي بالألف واللام، وليس بدونها. قلت مهوئاً وأنا أريد أن أفرغ لغيره: يا سيد لافرق .. زكي أو الزكي. وتمعننت في وجهه من جديد، دأبني خاهر شيطاني، أردت: المهم المهراس !! لفت الحوار انتباه موظف آخر قريب، نظرة واحدة كشفت الفجوة الواسعة بين الاسم والمسمى، قال بعفوية مطلقة: هذا من أسماء الأضداد !! سخن رأسي استعداداً للقتال مع زميلي، ولكن كانت رحمة الله واسعة، كما كانت معلومات المهراس اللغوية ضحلة فلم يفهم مرمى النكتة، إذ انتقل إلى التساؤل: ماذا تقصد؟ وظن الزميل أن سخريته انكشفت، وربما أدت به إلى المسألة، فقال: مثلاً أخطأ رمضان أفندي في الزكي، لعله أخطأ في الباقي. فقال بنفس لهجته الباردة: لا يوجد خطأ آخر، ولا أقبل القول بأنه لا يوجد فرق، لأن الفرق واضح. قلت بسرعة لأنني الموقف: ولا يهتك، هأنذا أصلح خطشي. وسحبت خطاب الاستدعاء من يده، وأضفت إلى اسمه

«ال»، وقلت: عليك الآن أن تذهب لاستلام العمل. قال دون أن يغادر لهجته إياها: هذا أمر يخصني، وسأقوم به، أما ما يخصك فهو أن تطمئني عملياً بأنك صحتحت اسمي لدى كل الجهات التي وقعت قرار التعيين، أو تحتفظ بصورة من أوراقي.

من يومها صار مشهوراً في الوزارة كلها؛ لأنه لم يكف عن مطاردتي حتى حققت له ما أراد، فعرفت كل الأقسام وجميع الكتب أن صحة اسم زكي المراس هي: الزكي المراس!! ولقد تمسك باسمه حرفياً حتى إنه لا يجد حرجاً في تصويب النطق به ومقاطعة من يخاطبه عشر مرات في اليوم، وقد لا يرد على من يسقط هذه الـ«أل» اللعينة، وهكذا استقر في الأدمغة، وقفز على أطراف الألسنة دون منافس، ودون أن يصنع شيئاً غير ذلك.

وفتح الزكي المراس صندوق السجائر ذا النقوش الصدفية، وقدمه إلى أقرب المتحلقين حول مكتبه ليدور به بين الجالسين، وظهر أن نسبة واضحة أقلعت عن التدخين، فرفع غطاء صندوق آخر، فلمعت أغلفة قطع الشيكولاته المبرقشة بألوان الفراشات، وتداولت الأيدي الصندوق في صمت، يقطعه بين حين وآخر أحد الموظفين الصغار، يندفع من الباب ماداً ذراعيه، متحنياً يقدم التهنية الحارة ويتمم بالدعاء، ويرد على عبارات لم تلفظها شفتا المراس، وإنما هيئاً الداخل نفسه لها قبل أن يقتحم الموقع المرصع بوجوه الرؤساء، ثم يتراجع بظاهرة متعشراً بضع خطوات، ويمضي ليتبعه آخر بعد قليل. استراحت الحلق والخياشيم لنعومة الدخان ونكهة الشيكولاته، واسترخى المراس في كرسيه قليلاً، وأراد أن ينطق بجملة تناسب المقام، فتفكر قليلاً، وأثر أن تكون ذات وقع حسن لدى رؤوسه مما يحسب في رصيده كمسؤول، وفي نفس الوقت تحمل معنى التحية لوكيل الوزارة، فلا بد أن يصله كل ما يدور بشكل أو بآخر، فقال بعد تروؤ: حين تكون القيادة أمينة ماعليك إلا أن

تعمل بكل ثقة، في صمت، متأكداً أن التقدير لن يخطئك .

قال صاحب الخطوة القليلة، وقد بشره من قبل بكرسي الوزارة: أنا على ذلك من الشاهدين، وما زلت أذكر كيف رقيت سعادتك إلى أولى درجات الوظائف العليا .

قال المراس متصنعاً الدهشة: حقاً تذكر؟! أما أنا، فقد نسيت، لقد حملتني أمواج الدرجات من السادسة إلى الثالثة مثل غيري، وحين واجهت حائط الترقية بالاختيار ايقنت أنني بلغت آخر محطة، فأنا كما تعرفوني لست محسوباً على أحد، ولا أقوم بأي دعاية لنفسي أو لعملي، ولا أنتمي لأي تنظيم، ولا أعتقد أي نظرية .

أحسن على الفور أنه تورط في سلسلة من الاعترافات قد تفسر لغير صالحه، فهب صاحب الخطوة القليلة لنجدته، وقال: إلا العمل . وصدق الله العظيم إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وسلم المراس في نفسه بحجم الانقاذ الذي مارسه مرؤوسه، فأراد أن يكافئه فاتجه إليه مذكراً: قلت إنك تذكر شيئاً يتعلق بترقيتي .

التقط المرؤوس طرف الحديث على الفور مدركاً وجه المجاملة ولطفها . قال: نعم، كان سعادة الوكيل الحالي مديراً للإدارة أيامها، كان يحتل هذا الكرسي نفسه، وكانت الحركة في إدارتنا لا تتسع إلا لشخص واحد يرقى بالاختيار إلى الدرجة الثانية. لقد أيقن جميع موظفي الإدارة أن الذي سيحتل الدرجة الشاغرة هو الأستاذ مسعود ابن أخت المدير، وأنها إذا جاوزته لأمر ما فلن تكون إلا للأستاذ هاشم — الله يرحمه — وكان دينامو الإدارة وعمرها اللامع .

أدرك المتحدث أنه أفشى جزءاً خطيراً من مكنون نفسه، وطرح التساؤل المحير: كيف رقي المراس بالاختيار دون الأكثر حظوة والأكثر قدرة معاً؟

فتلعم، ثم داور بسرعة : هنا كانت المفاجأة، ظهر اسم سعادتك كمرشح لاينافس، وهذا فعلاً يعود بنا إلى كلمة سيادتكم عن القيادة الأمينة والتقدير الذي لا يخطئ، فقد أدركت هذه القيادة أن هناك شخصاً ثالثاً، ليس محسوباً على القرابة؛ ولا يهتم بالإعلان عن عمله، إنه العامل الصامت . وهكذا وقع إختيار المدير على سعادتك متخطياً ابن أخته، وهذه قمة التقدير والنزاهة للطرفين .

وأظهر الجالسون الموافقة والاستحسان .

• • •

لم ينس الوكيل الحالي، المدير السابق — هذه الحادثة . هو أشد ذكراً لها اليوم، إذ قام بنفسه بتسريب الحراس إلى بداية طريق الكوادر الإدارية العليا . وقد احتارت الظنون في دوافعه . صغار الموظفين انقسموا بين قائل بالنزاهة ودليلها أن المدير تجاوز ابن أخته، وقائل بتعليمات سرية من جهات عليا ذات صلة خفية بالزكي الحراس، الذي تنطبق عليه صفات الرجل الغامض . أما أصحاب الدراية بدهاليز العمل الحكومي فقد كانوا يرقبون محاولات تلميع الأستاذ مسعود وهم واثقون من غايتها، وإلا كيف يفسرون رياسته للجان، وانتدابه الى جهات أخرى لوضع تقارير، ومؤتمراته الصحفية عن تطوير جهاز العمل لخدمة الجماهير، كل ذلك والأستاذ هاشم الأكثر كفاءة وخبرة شاهد يتفرج وتدفع به يد معلومة للفرق في تفاصيل العمل اليومي، ولهذا كانت خيبتهم عظيمة حين طاشت ظنونهم ولم تمنح الترقية لمسعود، وراحوا يبحثون عن السبب في الشخص المختار مرة، وفي الشخصين المرفوضين مرات، وغفلوا، أو غفل أكثرهم عن ظروف الاختيار وملابساته . كان مصمماً على ترقية ابن أخته دون تردد، فالترقية الى الدرجة الثانية مسألة حاسمة ذات مساس مباشر بالدرجات الأعلى . ولكن هبط فجأة سبب غير متوقع جعله يصرف النظر عن ترقية قريبه دون تردد أيضاً، فقد توفي

وكيل الوزارة المساعد الذي كان على وفاق معه وتفاهم صامت في أمور الترقية بصفة خاصة، وهذا يعني بالتحديد أنه — هو شخصياً — أصبح المرشح لاحتلال الموقع الشاغر، ويعني — في الوقت نفسه — أنه سيتولى تقديم كشف ترقيات إدارته إلى وكيل الوزارة دون واسطة، فهل يناسب ظروفه الآن أن يقدم بيده كشفاً يضع ابن اخته في السطر الأول منه؟! ألا يثير ذلك بعض الغبار حول اسمه؟ وقد يؤدي تحت ظروف ما طارئة لا يدري ماذا تكون، إلى صرف النظر عن اختياره وكيلاً مساعداً، أليس إهمال هذا القريب يعتبر فرصة ذهبية لإعلان صامت عن نزاهته وتجرده، وتكذيب عملي لجميع الظنون والأراجيف؟!!

ولكن: ماذا عن الأستاذ هاشم؟ إنه الاسم الذي رشحته الأفكار — وليس الظنون — للترقية دون المحفوظ بالقرابة. ولكنه لو فعل فإن هذا الشخص سيستأثر الطريق أمام ابن اخته لآخر عمره الوظيفي، وليس بمستبعد أن يهتد مركزه هو شخصياً بعد بضع سنوات، فهاشم لا يعرف المجاملة، بل لا يعرف الوفاء، ولا يعتنيه ما يقول الناس فيه مادام يؤدي ما يظنه واجبه، ويطالب بما يعتقد أنه حقه بصرف النظر عن رأي الآخرين فيه. الآن بان له وجه الصواب في هذه المسألة. سيختار ثالثاً لا يخشى منه؛ كالماء: لا لون له ولا طعم ولا رائحة. ولعل هذا يكون مرضياً لجميع الأطراف، أو مسخطاً لجميع الأطراف، فابن اخته سيتألم ولكنه لن ييأس لأن الدرجة ستكون في انتظاره في أول ميزانية قادمة، ويستطيع أن يكتسح الأقدمية بما له من سند ترسخت مكانته أكثر، وسيؤدي هذا إلى تأخر هاشم عاماً وربما أكثر، وبذلك يصير مسبوقاً بشخصين مما يضعف تطلعه وطموحه إلى المنافسة، ومع هذا لن يستطيع أن يجد من يستمع إلى تظلمه لأن وجه الطعن لا مبرر له، فليست للمدير أية مصلحة في تجاوزه إلى شخص آخر إلا مصلحة العمل، فجميع من في الإدارة يعرفون أن العلاقة بين المدير والهراس فاترة تماماً، ربما كان هناك

سوء ظن متبادل، جعل منه الشخص المناسب للموقف تماماً. وهكذا استقر رأيه على ترشيح الزكي المهراس للدرجة الثانية .. بالاختيار!!

• • •

كان المتحلقون حول مكتب المهراس يتابعون زميلهم وهو يروي قصة الترقية الأولى بقلق، وإن تظاهروا بالشغف والإعجاب، وحتى الدهشة. وحاول بعضهم أن يضيف في سياق الحكاية كلمة هنا أو توضيحاً هناك. كأنهم يشاركون في تذوق شراب شهوي، تحولت وظيفة المهراس إلى تاريخ يروي. قرر آخر أن يدخل في منافسة ويروي — من جانبه — مرحلة أخرى من مراحل «كفاح» رئيسه. أخذ يتمتن في الكلام المتداول بين شفاء الجالسين، لعله يجد ثغرة يدخل منها إلى اقتناص الفرصة، وتذكر شعاراً رفع بعض الوقت عن «الإدارة بالأهداف»، لم يشغل نفسه في ذلك الحين بالتعرف على دلالة الشعار، كان يراه مجرد «موضة» لا تلبث أن يخبو بريقها ويعود كل شيء كما كان. كم هو مضيء في هذا الموقف، أما المعضلة الحقيقية ففي الدفع به إلى الحلبة والصاحق بالمهراس! وطال استحلابه للكلمات الشاردة بين الأقواء وقد لجت في غرابتها حتى أوشكت أن تنتقل إلى مستوى السخرية من الذين كانوا ينافسون المهراس محتمين بذوي النفوذ، ولما لم يجد ثغرة، وأحس أن الفرصة توشك أن تغفل قرر المجازفة. قال: الزكي بك يعرف هدفه جيداً، ونمضي إليه لا يعبأ بالخرعبلات. قال المتحدث السابق: يعلم الله أن الترقية في ذاتها لم تكن هدفاً من أهدافه. فأسرع الآخر يصحح العبارة وقد أسعده استدراج كلمة «الهدف» إلى حلبة الكلام: ما هذا قصدت، لقد تذكرت الفترة التي نال فيها سعادته الدرجة الأولى، لقد تنادى خبراء الإدارة بنظرية الإدارة بالأهداف، وحين فتشوا أوراقهم ليجثوا عن خبير يضعونه على رأس العاملين في ادارتنا لم يجدوا للزكي بك منافساً. هذا ما قصدت.

ولعت عيون بالتصديق والتأمين، واختلجت شفاه إعجاباً ببراعة التأويل،
وشفاه بفضاعة التهويل، وأغضت عيون أخرى لا تدري ماذا تبدي وماذا
تخفي !!

وعاد المراس بك يعبر عن استحسانه للفرصة الجديدة التي أتحت له بأن
فتح صندوق السجائر وصندوق الشيكولاتة مجدداً، فارتفعت سحببات الدخان
من جديد، وراحت بعض الأفواه تلوك المعجون السكري بتلذذ، وقال المراس
وهو يركز كوعه على بلور المكتب ويحكم عناق كفيه فيصنع قوس نصر
صغيراً ارتكزت عليه ذقنه الحمراء المدببة مثل كوز البطاطا : هذه أذكرها .
كلكم تذكرونها .

وظهر الاستعداد على أكثر من وجه للإفاضة في ذكر الواقعة ، وعز على
صاحب الفرصة الأصلي أن تفلت من يده ، فأراد أن يتكلم بسرعة ، ولكن
عجينة الشيكولاته كانت قد أنشبت أطرافها الهلامية في طقم أسنانه فأزالته
عن مكانه ، فالنزم الصمت مقهوراً ، وفطن أحدهم إلى ما يحدث ، فهجم على
« الحكاية » يكملها :
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« كانت إدارتنا مثل كل التجمعات في تلك المرحلة ، منقسمة إلى يمين
ويسار، وقد انقسم العاملون إلى هذين القسمين وكأن الله لم يخلق غيرهما .
يسري بك حول استراحة الإدارة إلى مصلى ، ووضع في مدخلها صفاً من
القباقيب ، وسمح لموظفيه بمغادرة مكاتبهم عند سماع الأذان ، ومراقبة الذين
لايتوضأون ، مع أن وقت الظهر واسع جداً . أما فهم بك فقد آلف رابطة
موظفي الإدارة ، لا أحد يعترض على تكوين الروابط . لكن ماذا فعلت هذه
الرابطة ؟ أول قرار اتخذته كان رفع دعوى ضد الوزير باسم عمال اليومية
لحرمانهم من نيل حصتهم من الخوافز . ثاني قرار كان رفع دعوى ضد الوزير
باسم السعاة والفراشين لاحتساب ساعات العمل الزائدة بأجر !! » .

كان صاحب الفرصة الأولى قد تمكن من تذويب عجينة الشيكولاته ،
بذلك استطاع فكّ الاشتباك بين حنكه وطقم أسنانه ، وتبياً لاسترداد حقه في
تكلمة حكايته ، فما كاد المتكلم يتوقف للانتقال إلى المرحلة التالية حتى
انطلق الأول بغير استئذان :

«فعلا . وقف يسري بك وفهيم بك مثل ناكر ونكير . إذا قال الأول شرقاً
قال الثاني غرباً ، ومن عجائب المصادفات أنها كانا مؤهلين للترقية إلى
الدرجة الأولى ، وكانت قدراتها الوظيفية وأقدميتها على قياس واحد تقريباً ،
ولكن المكان الشاغر كان يتسع لواحد فقط . تعصب رواد الصلى لإمامهم ،
واصطف أعضاء الرابطة وراء رفيقهم ، واعتبرت مسألة حياة أو موت ، واعتبر
كل فريق ان اختيار رئيسه للترقية بمثابة وضع مستقبل الإدارة في يده ،
وتأهب للمقضاء المبرم على الفريق الآخر ، وبدأ يمارس تجاهه التحرش
والمضايقة . لا بد أن الوزارة كانت تعرف كل هذه الجوانب وتحسب احتمالاتها
في المستقبل . تسرب كلام .. أن الوزير نفسه عثر عن قلقه من اختيار أحد
الرجلين دون الآخر ، حتى لا يصنف هو والوكيل مذهبياً على أساس هذا
الاختيار ، فانتشرت الأقاويل ، ولكن : كيف جاء الحل ؟ »

أحسن المراس بأنه في طرح المسألة على هذه الشاكلة مساساً باستحقاقه
لنيل الترقية عن جدارة ، وليس تخلصاً من حالة الانقسام التي تهدد الإدارة
إذا ما اختير أحد الرجلين المتنافسين . قضى وقتاً يوازن بين ميزة الصمت وترك
الحكاية تمضي دون تعليق ، وتصحيح المسار ، ولكن المتكلم الذي قوطع من
قبل لم يغفلت الفرصة . قال : « في هذه الفترة هبطت نظرية الإدارة
بالإهداف من السماء ، وأنا أذكر للوكيل المساعد علي بك حسني رحمه الله
كلمة منصفة قالها في حق سعادتك حين سئل عن أسباب تفضيلك ، وتجميد
يسري بك وفهيم بك . قال : إن شعار المرحلة هو الإدارة بالأهداف ، ولقد
فضلت هذا الرجل لهدف محدد » .

لم يستطع المتكلم أن ينهي عبارته بطريقة ترفع من شأن الزكي المهراس ،
وتزيل الغبار عن ماضيه الوظيفي ، فتردد ، وتحتير ، فهبّ المهراس لإنقاذ نفسه :
«أظن حسني بك رحمه الله قال : وهذا خير رجل يطبق النظرية» .
ووافق الجميع مترحين على البك الوكيل المساعد .

• • •

«كله في الأرشيف يا أولاد» .

ورشف رمضان أفندي رشفة أخيرة طويلة من فنجان قهوته الثالث ، منذ
بدأ يحكي قصة الزكي المهراس . لم يتبدّد أثر الخبر رغم مضي ساعة أو أكثر .
بعض مرؤوسيه تركوا أماكنهم ، وهجر بعضهم ما بيده سواء في ذلك الملفات
والجرائد والساندوتشات ، أو حملها بين يديه ونقل الكرسي في مواجهة رمضان
أفندي ليستوعب التفاصيل ، وعاد العجوز الخبير بأسرار العمل يقول :

«في بلادنا — مع الأسف — نحترق الارشيف ، لا نزعّلوا يا أولاد ، لا
تحتقروا عملكم ، هذا هو الواقع . الموظف المفضوب عليه ، والذي ليست له
حظوة ، والمعاقب ، والذي أخنى عليه الدهر ويوشك أن يودّع ، مثلي . هؤلاء
هم الذين يستقرون عادة في الارشيف . أما في الفهم الإداري الصحيح .
الأرشيف مخ العمل ، ذاكرة الإدارة ، نقطة البدء في أي تنظيم أو تطوير .
وموظف الأرشيف الكفاء لا يتحول إلى خازن للملفات أبداً ، إنه يقرأ كل
ملف ورقة ورقة ، ويدقق المستندات ، ويراجع التوقيعات والتواريخ ، ويربط
بين القرارات والتحركات والتطلّعات والالتزامات . هكذا تقف أمامه الوزارة
عارية من كل أنواع السّر والتجميل والتزييف . هذه خبرة ليست سهلة ، إن
وراءها معاناة طويلة ، قد يصدر قرار بالترقية ، وحقيقته قرار بالتجميد أو
العزل أو حتى العقوبة ، وقد يصدر قرار في إدارة لا تجد له معنى ولا تفهم له
مرمى ، ولكن معناه ومرماه يتضحان في قرار آخر ، يصدر في إدارة أخرى ،
بعد شهر وربما أشهر!! ولن يفطن الذين يتناولون الحياة «بالقطاعي» إلى

الصلة بين القرارين » .

تابع الموظفون حديث رمضان أفندي بنصف اهتمام ، بل تملعل بعضهم ووجدوها فرصة للضغط على الجرس وطلب الشاي . لقد قال مثل ذلك مراراً ، وإنهم يصدقونه ، ولكن من منهم يجد الفرصة للتطبيق ؟! القرارات أكثر من الرز ، والتعليمات تترادف كل يوم بجديد مثل المهّم على القلب ، واصطيد اللقمة بات فناً يحتاج إلى دراية ومحاولات . فن أين يجدون الوقت أو النفس المفتوحة التي تجعل أحدهم يعطي هذه الأوراق المتراكمة بغبارها تفكيره وخياله ؟! كان مجلس الشاي قد استحكم حول المكتب الخشبي المهترء ، المشغل بالملفات ، وانطلق رمضان أفندي — على راحته — يصبّ خبرته مجاناً بين يدي خلفائه في الأرشيف قبل أن يغادرهم نهائياً :

« سأكشف أمامكم خبايا ترقية الزكي المراس من الدرجة الأولى إلى درجة مدير عام . من ناحية الشكل القانوني ، أقصد استيفاء المدة في الدرجة السابقة كان هناك ثلاثة يمكن أن يرقى أحدهم في المكان الشاغر بترقية علي بك حسني إلى وكيل مساعد قبل أن يتوفى بضعة أشهر : أحمد بك زمزم ، يوسف بك عاصم ، والمذكور . وكل من يعرف إدارة التخطيط ، أو حتى لايعرفها ، لايجد مناسبة للمقارنة بين زمزم وعاصم والمراس . المنافسة في الواقع كانت محصورة في زمزم بك وعاصم بك » .

أراد واحد من شباب الأرشيف أن يداعبه ، فقال :

من يعرف الإدارة يقر بذلك ، ولكن .. من لايعرفها ، كيف يحكم ؟

تطوع زميل آخر بالجواب ، ورأى أن يكون ظريفاً في حجم الاعتراض :
بالشكل يا أخي . يكفي أن ينظر إلى زمزم بك ليرى عليه سبائك الرؤساء ومهابتهم ، وعاصم بك في أناقة أولاد الذوات وأدب أبناء النعمة . ولكن صاحبنا ..

استعاد رمضان أفندي للحديث حديثه بأن قال :
ما تقولونه حق، ولكن هناك ما هو أقوى من مهابة الرئاسة وسحر
الشروة، الظروف. الظروف التي تعطل — ولو للحظة — تأثير المهابة وقوة
الشروة، فتهب تيارات غربية تدفع بأبي قردان إلى قمة جبل، فتظنه الطيور
المستضعفة التي توارثت الخوف من الأعالي صقراً كاسراً.

وعاد الشاب الأول يتساءل : هل تعني أن الزكي بك لم يكن جديراً
بنيل الترقية؟

وقال الآخر: لنعرف أولاً كيف رقي دون الأكثر جدارة.

وصمت رمضان أفندي قليلاً ليرتب أفكاره بما يناسب السؤالين. ثم قال :
الزكي المهراس من صنف خاص من الناس. مهمته الحقيقية العناية بتحسين
صورته، يملك القليل جداً من المواهب، ولكنه يحسن عرض هذا القليل. وهذا
للأمانة التاريخية ليس رأيي، ولكنه جاء في أحد التقارير السرية التي كتبها
عنه وكيل وزارة سابق، ووقع في يدي مصادفة قبل أن يأخذ طريقه في
مظروفه المختوم بالشمع إلى ملف المهراس. هو شخص ليس له أعداء، كما أنه
ليس له أصدقاء. لم يوقع عقوبة على موظف، ولكنه لم يطلب ترقية أو علاوة
استثنائية لأي شخص، لا يأنف من تلقي توجيهات رؤسائه، وربما تلقى
تأنيب بعضهم أيضاً، ولكنه لا ينفذ من التوجيهات إلا في حدود ما يدرأ عنه
تهمة العصيان. لا يغضب الرؤساء الآخرين. يطيل الصمت إذا صمت،
ويطيل الكلام إذا تكلم، ولكن صمته وكلامه سيان .. تستطيع أن تفسرها
كما تشاء، لكل هذا لا يتحمس أحد لترقيته كل مرة، ولكنه يرقى دون
اعتراض جدي كل مرة!!

قال أحدهم : فكيف فضله الرؤساء على زمزم بك وعاصم بك؟

— هما غلباه على نفسيهما، لأنه، لأول مرة وربما لآخر مرة في إدارة
التخطيط، كانت المنافسة بين هذين الرجلين اللذين قضيا عمرهما الوظيفي في

مشاكسة كل منها للآخر، على: من منها الذي يفوز بعدم الترقية إلى مدير عام!!؟

وقبل أن تفيض الدهشة على وجوه المجموعة، كان رمضان أفندي يمضي في استكمال معالم اللحظة الدرامية:

أما زمزم بك فقد كانت لديه بتان تخرجتا في الجامعة حديثاً، إحداها مخطوبة، والأخرى كتب كتابها، ويبدو انه تعرض لإلحاح وضغوط من صهره لإتمام الزواج، ولما كان رجلاً مستقيماً ويعيش في حدود مرتبه، فإنه عجز عن تدبير ما ينبغي إعداده لتجهيز بنتيه فضلاً عن نفقات الزفاف كما تعرفون. انتهر الرجل فرصة خروجه ضمن وفد وزاري إلى إحدى دول النفط، وكانت سمعته الحسنة معروفة، فحصل على وعد بإعارة لمدة عامين، كان الرجل تواقاً للقب «المدير العام» ويعلم الله أنه يزينا ويستحقها بمجدارته، ولكنها حين وافته كان الزمن قد تغير، وأصبح الاختيار صعباً، وبعد تردد غير طويل فضل زمزم بك حلّ مشكلة بناته ولو بتأجيل الترقية، على الاستقرار في كرسي المدير العام الذي يحول بينه وبين الإهارة.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

— طيب .. وعاصم بك؟

— هنا نفثح ملفاً آخر، ولكن قبل أن نفعل نعرف أنّ مدير عام إدارة التخطيط هو بحكم منصبه عضو في مجلس أمني حساس على مستوى الدولة يرأسه وزير مختص. وعاصم بك — إن كنتم لا تعرفون — مشارك من الباطن في ثلاثة ملاء ليلية تحتل نصف مساحة شارع الهرم، وله صلات ناعمة كثيرة، ويمكنك أن تراجع قوائم المطربات والراقصات في هذه الملاهي الثلاثة لتجد أنها واحدة تتكرر على التبادل بينها مما يؤكد أنها تخضع لمخطط واحد. ولاشك أن عضوية المجلس إياه تتنافى تماماً مع نشاطه الليلي الواسع وثروته التي تأتي متسرلة بالظلام.

— وطبعاً أعضاء هذا الجهاز يتم التحري عنهم سلفاً، وربما يراقبون خفية

للتأكد من نزاهتهم .

— بالتأكيد، ولذلك، ورغم اندفاعه في منافسة زمزم بك — رة الله غربته — فإنني سمعت أنه بذل جهوداً كثيرة في الاعتذار عن عدم قبول الترقية، والاحتفاظ بمكانه، أو حتى نقله إلى إدارة أخرى إذا أصر رؤساؤه على ترقية .

وتمم الجميع : حظوظ .

وقال أحدهم : رُبَّ ساعٍ لقاعد !

قال رمضان أفندي :

وهكذا تم اختيار الهراس لمنصب مدير عام إدارة التخطيط .

* * *

انفض الساعي المتقاعد على باب الوكيل المساعد للشؤون القانونية مذعوراً حين وجد يداً تمتد إلى مقبض الباب تريد أن تفتحه وتدخل المكتب دون استئذان . تحرك حركة غريزية يريد منع اليد الممتدة فوجد نفسه أمام سعادة وكيل الوزارة وجهاً لوجه !!

انبسطت قسّمات الوكيل المساعد للشؤون القانونية حين وجد الوكيل بنفسه يتوسط مكتبه، واعتبر قدومه دون اتصال تليفوني مسبق دليل عشم ومحبة، أو محاولة استرضاء على مستوى أخوي . وقد كانت الحقيقة قريبة من ذلك . انتهى الاجتماع في الصباح، بإغضاب الوكيل المساعد ورفضه التام لترقية الهراس من مدير عام إلى وكيل مساعد لشؤون التخطيط والمتابعة، وأوشك — لولا علاقة الثقة التي تربطه بالوكيل — أن يلوح بمسؤوليته المباشرة عن توصيف الوظائف وتطبيق القانون، ولكن الوكيل أملى رغبته في ترشيح الهراس للموظفة متعللاً بالأسباب العامة التي يمكن أن تطلق على أي موظف عادي، ويمكن أن تسلب عنه في نفس اللحظة دون أن تميزه عن غيره .

خرج الوكيل المساعد شبه غاضب . تفكر الوكيل قليلاً في موقفه ، بعد مداولة داخلية لم يجد غضاضة في أن يبرء ساحة نفسه ويؤكد نزاهته لمساعدته ، حفاظاً على الوثـق بين المستويات الإدارية العليا ، ولأنه كثيراً ما يستعين بخبرته القانونية في إجازة أو منع أشياء له فيها رأي خاص قد تعانده اللوائح أو يعثر في حبال القانون الطويلة ، وربما فكر في التراجع عن الترضية حفاظاً على مهابة الوكالة وحققها المطلق في قبول الاقتراح أو رفضه ، ولعل هذا الدافع المتحدي استطاع أن يتغلب على دوافع المجاملة ، فحمل « الحركة » في يده ، وغادر مكتبه متجهاً إلى مكتب الوزير ، ولكنه غير فكرته فجأة حين وجد نفسه يمر بالباب ، فلم يملك يده أن تمتد إلى المقبض ، وما هي إلّا خطوة لم يفكر فيها حتى كان يتوسط الغرفة الواسعة ، والوكيل المساعد مبهوت بالمفاجأة ، سماعة التليفون في يده خالية من الكلام ، وقامته البرميلية محشورة بين الكرسي والمكتب وهو يحاول أن يغادر موقعه تعبيراً عن احترامه ، ولا تسعفه الكلمات .

جلس الرجلان في مقعدين متقابلين . قال الوكيل مجاملاً وهو يتلمس أطراف الملق : أنا ذاهب بالحركة إلى الوزير ، وإن أكمل رحلتي حتى تكون راضياً .

قال المساعد بصدق :

يا سعادة الوكيل . أنا راض عنك رضائي عن أبي وأساندتني ، فأنت استاذي في هذا العمل الذي نضطلع بأمانته ومسؤوليته . أنا تلقيت عنك دروساً في النزاهة ، والحكم على الرجال . كيف نضع الهراس .. قاطعه الوكيل متمازحاً :

أنت غاضب لأنه سيكون وكيلاً مساعداً مثلك ؟

— أحسنت يا سعادة الوكيل ، مع تعديل بسيط .. فلن يكون مثلي أبداً .
قال ملاطفاً :

أنا أول من يقرّ بذلك :

— عظيم . فكيف نضعه في السلم الوظيفي أمام من نعرف أنهم أكفأ منه : سامي بك ، والسبع بك ؟

— أكفأ منه .. ربما ، والمسألة نسبية .

— هنا اسمح لي نختلف بإسعادة الوكيل . لن أعود إلى ماسبق قوله في مكتب سعادتكُم : الكفاءة ليست نسبية ، ولا تختمل الاختلاف ، إلا أن يكون اختلافاً على تصوّر الدور الذي يقوم به الموظف القيادي .

أراد الوكيل أن ينهي الكلام بلطفافة . مواعده مع الوزير قد أوف ، والدخول فيما سبق تردّده من حجج لن يؤدي إلى جديد . قال برقة :
لوعلمت أن هذه رغبة معالي الوزير . ماذا أنت قائل ؟!

بوغت الوكيل المساعد . كان يظن نفسه عليمًا ببواطن العلاقات وأسرار الاتصالات ، لم يظن ، ولا في الأوهام ، أن الزكي المراس يهم الوزير بأية درجة ! تفكر قليلاً ، أعاد حساباته . تخيل سلسلة احتمالات : نسب مرتقب ، جيرة في البلاد الأصلية ، انتهاء لنفس الكلية ، ثم ذهب إلى أبعد من ذلك : صلة بجهة ما لا يدري عنها أحد ..

لم يستطع الوكيل المساعد أن يصرّح بشيء مما جال في هواجسه ، ولكن سحابة القلق عبرت بوجهه فوشت بمكنون الضمير . قال الوكيل :

لا تنظلم الرجال . أنت تعرف أن وزيرنا نزيه نظيف السيرة .

— نعم . معلوم ، ولكن : كيف يقدم المراس وعنده سامي بك والسبع بك ، ولا مجال للمقارنة ؟

— النزاهة !!

— النزاهة ! كيف تكون النزاهة سبباً في عدم النزاهة ؟ وضّح لي ، ولا تؤاخذني على صراحة التعبير .

— لم يصدر ما يستدعي المأخذة. سأوضح لك. لم تكن لدينا درجة وكيل مساعد، لولا أن نصحي بك طلب إحالته إلى التقاعد ليشغل بالتجارة لاستقر الأمر على حاله فترة طويلة. الحاصل أن لدينا درجة واحدة شاغرة. لو ترك الرجلان الأمر لوزيرنا لاختار أحدهما دون شك، والآخر يلحق به في فرصة لا بد أن تأتي، ولكن كلا منها اعتبرها معركة مصير. وهكذا انزلنا إلى تبادل الكيد ونشر التقلبات، وسعى كلٌّ إلى تركية نفسه بكل سبيل. دافع وزير آخر عن سامي بك وكلم وزيرنا في أمره، وعلق بعض أمور وزارتنا عنده حتى يستجاب لرجائه، وتكلم نائب وضابط كبير في شأن السبع بك، وألح كل فريق على الوزير حتى ملَّ الرجل، وأحس بالخرج، ووصل إلى قناعة أن اختيار أحد الرجلين سيؤدي إلى تفسيرات خاطئة لاتليق به. من هنا كان القرار. القرار الأكثر حياداً ونزاهة!!

لم يجد الوكيل المساعد للشؤون القانونية ما يعلق به. غرق في دوامة خفيفة للحظة خاطفة.. حاول أن يستجمع فكرته ويقول شيئاً، أي شيء، ولكنه قبل أن يفعل، كان شيخ الوكيل يتوارى خلف ضباب الباب الزجاجي.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

واقع الكتاب
العلمي العربي
في السبعينات
وأفناقه في
الثمانينات

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بقتلم: د. محمد السويسي

تمهيد:

لسنا في حاجة إلى التذكير بما للكتاب عامة من فضل في سبيل نشر الثقافة والمعرفة بين الناس، وكل يذكر مقالة الجاحظ في مدح الكتاب وما يجنى منه من ثمار وما يستفيد به الناظر في متنه وحواشيه، انه (يحتاج اليه

الرياض كما يحتاج اليه الحاذق، اما الرياض فلتتعلم والدربة. وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين المادة، اذ كان جليله يتقدم دقيقه. واذ كانت مقدماته مرتبة، وطبقات معانيه منزلة، واما الحاذق فلكفاية المؤونة، لأن كل من التقط كتاباً جامعاً وباباً من امهات العلم مجموعاً، كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كده .. (١)

ويقسم محمد بن موسى الخوارزمي الكتاب فيما كتبوا ومصنفي العلوم فيما صنّفوا ثلاثة أقسام، فهم (اما رجل سبق الى ما لم يكن مستخرجاً قبله فورثه من بعده، واما رجل شرح مما ابقى الأولون ما كان مستغلقاً، فاوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه، واما رجل وجد في بعض الكتب خلا، فلم شعثه وأقام أوده). (٢)

واما عما يدور بخلد الكاتب من أفكار، وما يشعر به من حاجة إلى الكتابة وما يجعله لكتابه من منطلقات ومن أهداف فيقول الحسن بن هيثم (وانا مامدت لي الحياة بأذل جهدي ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يعني ما يصنف من الكتب) توخيت به اموراً ثلاثة: احدها افاة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد وفاتي، والآخرة اني جعلت اذلك ارتياضاً لي بهذه الامور في اثبات ما تصوره واتقنه فكري من تلك العلوم والثالث اني صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة واوان الهرم). (٣)

على ان الملاحظات السابقة تبدو بكيفية أوضح، فافرضه نفسها بالتأكيد في عصرنا هذا، وقد سار العالم باجمعه على درب الفوبسرعة مهولة، وتطورت العلوم والتقنيات تطوراً عميقاً، وتضاءل دور النظرية ازاء دور العمل والتطبيق، واصبح الوجه الانتفاعي المادي من الامور هو الطاغي بل انه صار يستخدم احياناً لتبرير ما تستوجهه البحوث في العلوم الأساسية والرياضيات مثلاً من أعمال نظرية ومن جهود مكثفة قصد اغنائها.

فلا شك ان الرياضيات العقلية كانت منذ القدم تعتبر مدخلاً لسائر

المعارف وكانت تسمى (بعلم التعاليم) الا انها في العالم المعاصر اصبحت متمخضة تقريبا لخدمة العمل التقني، فلا سبيل الى درس أي نظرية الا في اطار التأكيد على وجهها التطبيقي أو على الأقل في اطار التصور المادي للمفاهيم التي تعرضها، وتبع ذلك منهج تربوي صار ييسر فهم النظريات المستحدثة بالاستناد إلى مظاهرها التقنية أكثر مما يستند إلى سلاسل الاستنتاجات المنطقية المدققة.

وأصبح من المتحتم على الوطن العربي بأكمله أن يفكر ملياً وأن يقدم على تغييرات جذرية في عقلية وفي طرق عمله وفي سلوكه اليومي وأن يكون متفتحاً على مايرد عليه من حسنات المعارف والتقنيات الغربية، وقد صار للعلوم في هذا العصر المرتبة العليا، يدعمها عدد متزايد من المعطيات المكتسبة من اصول الكم ومن الرياضيات. وأضحى الانسان المثقف الثقافة الحق - وهو في نهاية الامر من ننشد تكوينه في شتى مراحل التربية والتعليم في المجتمع العربي الحديث - لاسبيل له ان يستغني عن هذه المعارف المتجددة وأن يبقى متخلفاً عن عصره مقدار قرنين باعراضه عن سبل الاختصاص في الميادين العلمية، وصار لزاماً عليه أن يكرع من حياض العلم الغربي وان يجعل من مراجعه وكتبه (المعلم الذي افتقرت اليه لم يخفرك).

ولئن واجه العرب في الماضي مشكلة نقل العلوم والخبرات والتقنيات بروح متفتحة ملؤها الفضول وحب الاطلاع، فأخذوا الحكمة انى وجدوها خصوصاً وان حجم المعارف قد تضخم تضخماً مريعاً من جهة، وان جهود العرب للحصول على الخبرات تبذل على نسق التشتت والتفكك من جهة اخرى، كل يذهب في ذلك مذهبه فلا رابط بين المساعي المختلفة، ولا موحد للمناهج المتعددة، وصار الكل يخط خبط عشواء، وصارت الكثرة عيباً وعائقاً، ولاقى الغرب هذا التنوع في الغربة لابروح ثقافية سخية بل بروح تجارية استثمارية، واصبح علمه بضاعة تباع خاضعة لقانون العرض

وأضحى من المتأكد الحيوي ان يفكر العرب تفكيراً جدياً في وسائل التوحيد العلمي الثقافي وفي التخطيط الدقيق للعمل المشترك والالتزام الحازم بتطبيق مقتضياته وان كان في هذا التطبيق أحياناً ما يحد من ظاهرة الاقليمية النازعة إلى الاستقلالية . وفعلنا قد اكب المسؤولون على التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي — على النطاق القطري الضيق وفي الاطار العام العربي — ودرسوا الممار العديدة الوسائل الكفيلة برفع مستوى الباحثين والطلاب من الوجهة العلمية والتقنية، وكثيرا ماوضعوا أصبعهم بالضبط على مواطن الضعف وما تستدعي من علاج، وانطلقوا في تقييمهم للوضع من تصورهم لوظيفة التعليم العالي ومايرمي إليه من أهداف عاجلة وآجلة .

ومن هذه الأهداف (الاسهام بالتقدم الاقتصادي والاجتماعي في مختلف ارجاء القطر، وتطوير الحضارة العربية في مجالات العلم والتقنية والفكر والفن واغناء الحضارة الإنسانية وتوسيع آفاق المعرفة البشرية) .

وتعتمد توصيات اللجان في المؤتمرات التربوية على مبادئ أساسية وتسند منهاج ترمي إلى تأصيل البحث العلمي في الوطن العربي، ومن هذه المناهج والمبادئ: (٤)

(— بعث التراث الفكري العربي بنقل امهات الكتب العلمية والتقنية والفنية والفكرية الى اللغة العربية، وبالتأليف والتدريس باللغة العربية في جميع مراحل التعليم العالي)

(— الايمان بان البحث العلمي لم يعد ترفا تمارسه بعض الأمم المتقدمة وتحسركه بعض المجتمعات الناهضة، ولكنه ضرورة تحتاجها البلاد النامية كما تحتاجها البلاد المتقدمة ..)

(— حتمية الخوض لعباب البحث العلمي، ذلك بأنه لايمكن للعلوم أن تكتسب بالاقتباس والنقل فقط، واذا صح هذا في بداية النهضة، فانه لايصح

الاندفاع فيها) ..

(— وضع كتب جامعية موحدة في المقررات التي يدرسها الطلبة رغبة في خفض أسعار هذه الكتب، وتعويد الطلبة على الرجوع إلى المصادر المختلفة المتوفرة باللغة العربية)

(— نشر البحوث العلمية جميعها باللغة العربية، على أن تشفع، ان اقتضى الحال بخلاصة وافية بلغة اجنبية حية تعطي فكرة واضحة وكافية عن البحث وطريقته ووسائله ونتائجه).

هذا ويجدر أن نشير الى نتيجة تربوية ذات بال بلغها العصر الحاضر وهي ان العلم لم يعد يلحق تلقينا ولا يودع في مسطور الدفاتر فيكتفي المتعلم باقتباسه من هناك، ولم تعد عملية التعليم تعتمد على المحاضرة المجردة أو الكتاب الجامعي المشتمل على مادة المنهاج الرسمي .. ولم يعد التدريس الجامعي يقصد منه نقل المعارف وشنح الأدمغة بالمعلومات، بل انه اصبح هادياً يهدي الطالب السبيل ويجعل التساؤلات تتوارد على فكره كي ينظر فيها ويسعى الى حلها بتطبيق طرق البحث الحديث التي تدرب عليها لالرجوع الى المعادلات والعلاقات التي اجهد نفسه بحفظها .. هو اذن مجموعة من الطرق (تعلم الطالب كيف يتعلم) هي طرق تعلم لا أساليب تعليم ... بل هي طرق قد يجد فيها المدرس نفسه مساعداً على التقدم في العلم معينا على المزيد من التعلم .

ولابد أن نؤكد أخيراً انه مهما كانت المحاضرات قيّمة ومهما كانت المقالات مفيدة والمصنفات حسنة، فكل ذلك لا يكفي ولن تكون النتائج لاثقة موثقة للوضع الثقافي والعلمي المتجدد ما لم يمنح المدرسون من الوقت ومن المرافق والمساعدات المادية والأدبية ما يكفي لكي ينقلوا طلبة باحثين من جديد عاملين باستمرار على تحسين معارفهم المهنية المتخصصة وعلى الاحاطة بما جدّ من جديد في حقل اختصاصهم وفي سائر الاختصاصات ... وكى

يسجلوا بالعربية ما يوفقون للوقوف عليه من الابتكرات ومن الاكتشافات الطريفة .. وهكذا يكون الكتاب العلمي دوماً في تطور لا ينتهي ، وتجدد العربية فيه ثراءً متزايداً متجدداً ويشع البحث العلمي على القطر باجمعه منه يجنى ثمار النماء ، ويساعد تبادل الخبرات والتقنيات على التنمية الشاملة وعلى افساح دائرة المعارف البشرية ودعم الحضارة الإنسانية .

• • •

هذه جملة من الآراء العامة حول دور الكتاب العلمي في سبيل التنمية العربية الشاملة ، مهدنا بها لبحثنا كي نتضح لنا معالنه وكى نتمكن من تحليل ما تم اغباره فى ميدان النشر العلمى باللغة العربية وتقييم هذه الانجازات فى السبعينات وتحس ملاحها فى الثمانينات .

الكتاب العلمى العربى ،

اصنافه ، مشاكله ، وضعه الحالى ، حلول مقترحة لافساح آفاقه :

يجدر بنا ، قبل كل شىء ، أن نحدد مانتقصد هنا بتعبيرنا (الكتاب العلمى العربى) ؟ فنحن لانعنى بذلك المفهوم الواسع للعلم والبحث العلمى فى الاختصاصات كافة ، ومهما كانت قيمة البحوث فى (العلوم الإنسانية) و(الاجتماعية) فاننا ، جملة ، ستركها جانباً ، نظراً لما للعلوم (الاساسية) والتقنية) فى العصر الحاضر من سيطرة على حياة الفرد وحياة المجتمع ، وسنقتصر اذن على الكتب المصنفة فى الرياضيات بمختلف شعبها من جبر وتحليل رياضى وهندسة وطوبولوجيا وغيرها ، وفى العلوم الطبيعية جمعاء من فيزياء وكيمياء وحيوان ونبات وطب الخ ، وسيشمل استعراضنا من هذه المؤلفات ماكان نظرياً مجرداً وماكان عملياً تطبيقياً .

فسنجرى سبراً عاماً لما تم نشره من الكتب العلمية والتقنية فى عديد من البلدان العربية ، وسنحاول درس وضعها العام والكشف عن أهم خواصها

نوعا واحصاء، وسنسمى الى أن نستوحي من ذلك ما من شأنه أن يرتق الفتق وأن يسدد النقص وأن يصلح الوضع.

وقد يكون في الامكان أن نصف الكتاب العلمي ثلاثة أصناف :

١ — الكتاب التابع لآحياء التراث العلمي العربي، بتحقيق النصوص أو بالتعليق والتعقيب.

٢ — الكتاب العلمي المترجم عن اللغات الاجنبية.

٣ — الكتاب الطريف المؤلف في حقل خاص من ميادين العلوم. ولكننا سنفضل اعتماد تقسيم ثان، مشيرين من حين لآخر الى خواص ترجع إلى مقتضيات الأصناف السابقة فسيشمل بحثنا الأقسام الآتية :

١ — الكتاب الجامع الموسوعي.

٢ — الكتاب المبسط.

٣ — الكتاب الموجز.

وستعرض الى نوع خاص من الكتاب العلمي وهو:

٤ — الكتاب الجامعي المأهول للمناهج الرسمية الخاصة، أو المصنف. ضمن الأعمال الجامعية المقررة في هذه المناهج.

أ — الكتاب الجامع الموسوعي :

ان المستوى العلمي في بلد ما يعبر بما يوجد فيه من امهات الكتب الجامعة الشاملة الموسعة، المؤلفة في لغة البلد لتكون مرجعا يعود اليه الباحث الدارس لآخر ما جد في العلم.

وبالطبع ان مثل هذه الكتب لا يمكن أن يصنفها الا الراسخون في العلم المتطلعون للأفاق البعيدة، الواقفون في مقدمة السفينة لترى أعينهم مالم تشاهده عيون من قبلهم في أغوار بحار لانهاية لعمقها.

واذا ما ربطنا ذلك باللغة فاني انطقت قديما لسان حال اللغة العربية

بقولها: (أعطوني العلماء أعبر لكم عما لم تنطق به اللسان من قبل) وفي المعنى يقول ريفارول: (ما كانت قط اللغة الثرية لتكون لغة شعب جاهل معوز). (٥)

على أن من يريد التوسع في اختصاصه يكون لزاما عليه أن يطلع باستمرار على ما ينشر، في حقله، في اللغات الأجنبية جمعا، ولذا يتحتم على الباحث في هذا العصر أن يتقن من اللغات الأجنبية ما ييسر له هذا الاطلاع، وهو يجد أيضا في الترجمة والنقل مساعدا ومعينا.

ولا غرابة فقد كانت ترجمات المصنفات العربية الى اللاتينية المصدر لحركة النهضة الأوروبية والمرجع الوثيق لها طيلة اربعة قرون، فهكذا كان الشأن بالنسبة الى كتاب القانون لابن سينا وكتاب الحاوي وكتاب المنصوري للرازي وكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي الخ...

وانما اذا ما تصفحنا فهارس المطبوعات العلمية العربية في هذه العشرة نكاد لانسجل اسم كتاب جامع من هذا النوع، وهذا الأمر ليس غريبا اذا نحن نلاحظ، حتى بالغرب، نقضا في مثل هذه الكتب باللغة القومية، فصارت الدراسات العليا في فرنسا مثلا تقتضي الرجوع الى ما ألف في لغات أخرى، وأهمها الانكليزية، بل ان محري الكتب العلمية والمقالات التقنية والمساهمات المختصة في المؤتمرات الدولية اصبحوا لا يفقهون سوى اللغة الانكليزية، مما أضجر المنادين بالأصالة اللسانية الى التحرر من رقة (الفرنفية) أي المزيج من الفرنسية والمصطلحات الانكليزية.

ويجدر في المجال الذي نحن بصدد التعرض له أن نشير الى ما للترجمة من أهمية (٦) وما يمكن أن تقوم به من دور للمساعدة، من جهة توفير المراجع القيمة في مختلف الاختصاصات، ومن جهة أخرى، على اثراء المكتبة العربية بعناوين من أمهات الكتب عم صيتها البلدان جميعا ونقلت الى اللغات ساثرها.

على أن عمل الترجمة هذا عسير جداً في وضعنا الحالي، إذ هو يتطلب وجود مترجمين متضلعين من المعارف العلمية، متقنين للعربية واللغة المنقول عنها على السواء، ولم يشرع حتى الآن في تكوين هذه الفئة من المنتجين، بل بقيت الترجمة هواية شخصية، موكولة لظروف خاصة، ولم تنظم مسالكها ولم تنسق سوقها ..

ولذا ما فتئت حركة الترجمة العلمية هزيلة، بعيدة عن الكفاية من حيث الكم، بعيدة عن المستوى اللائق من حيث الكيف على أن بصيصاً من الأمل قد لاح أخيراً في هذا الصدد إذ أقر مجلس جامعة الدول العربية انشاء معهد لاعداد المترجمين وتعمل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على انشاء مؤسسة عربية للتأليف والترجمة والنشر ووافق مؤتمر وزراء الثقافة العرب (بغداد ١٩٨١/١١) على مشروع الخطة القومية للترجمة .. ولكنه لا يكفي الاتفاق على المبادئ ونحن في عهد أصبح لا يعتمد فيه بمجرد حسن النية وطيب الاستعداد بل ان عجلة الزمن تدور متسارعة وتختلف الواقف عن القافلة السائرة يتفاهم .. فالأمر عمل وجد وانجاز ..

وأما في الوضع الحاضر فإن للاعتباطية اثرًا واضحا يتجلى في نوعية الكتاب العلمي المترجم، محتوى وشكلا، سواء كان واضعه فردا أو لجنة رسمية في بلد من البلدان ..

فن هذه (٧) المؤلفات ما يكون وحدة متكاملة، فيشمل النقل كل خواص الكتاب، من نص يعرض المسألة العلمية، ومصطلح علمي يعبر عنها، ومعادلات وجداول وخطوط بيانية تمثلها، بل يجد المتصفح للكتاب مصنفاً عربياً دما ولحما، لفظا ومعنى، فكأن الكتاب حرر مباشرة باللسان العربي .

ومنها ما اعتمد التعريب الجزئي، فأجاز استعمال المعادلات والصيغ والجداول والتراكيب بحروفها اللاتينية، بدعوى عالمية هذه العناصر، وهذا واضح في منشورات كليات العلوم والصيدلة والطب البيطري والزراعة

والهندسة، على أنه قد يكون من العدل أحيانا أن ترد البضاعة لأهلها، والا
 نستعمل مصطلحات Tangente, Cosinus, Sinus ورموزها Tg, Cos, Sin
 عوضاً عن المسميات التي كانت الأصل لها: الجيب وجيب التمام
 والظل وهي من استنباط الفكر العربي بالذات، ثم ان الكتابة العربية تجري
 من اليمين الى الشمال بينما تقرأ المعادلة الآتية مثلاً، في صيغتها اللاتينية من
 الشمال الى اليمين $\cos (X + y) = \cos X \times \cos y - \sin X \times \sin y$
 وكم كان من الأليق بالعربية أن يعبر عنها بما يلي:

جتا (س + ص) = جتا س جتا ص - جا س جا ص

وهناك كتب (٨) جامعة مؤلفة أو مترجمة اعتمد فيها اصحابها اللغة
 العربية، ووضعوا بجوار المصطلح المتفق عليه أو المقترح مقابله باللغة الاجنبية،
 وهذا بدون شك من شأنه ان يسهل على الأستاذ الممارس لأول مرة
 للتدريس بالعربية، أو للطالب المعتمد لهذا المرجع أن يتصور المفاهيم المعروضة
 بدقة ووضوح، خصوصاً وقد اعتاد الرجوع إلى المصادر والمراجع الأعجمية الا
 ان الافراط في هذه الطريقة قد يكون محلاً وأن بعض المصطلحات الأجنبية
 المحققة فيما نرى زائدة: أمثال: المعالجة Treatment التشخيص
 Diagnostics الاعراض Syntouiss الخ..

وهناك كتب حرر فيها النص الشارح بالعربية وعملت على الابقاء على
 المصطلح الاجنبي مكتوباً باللغة العربية مع الأصل الأجنبي وأما الرسوم،
 كرسوم الميكروبات فقد اقتصر المترجم على توضيح أجزائها باللغة الأصلية
 الأجنبية ولم يذكر مرادفها العربي، وكذلك بالنسبة الى جملة الأشكال ..
 ولاشك أن هذا التعريب لما ييجّه الذوق السليم، مثل الكتاب فيه كمثل
 الشخص الذي يرتدي جبة أو قيصاً ويجعل على رأسه برنيطة!

ب - الكتاب العلمي الجامعي:

بدون شك إن نشر الكتاب العلمي الموسع الذي وصفناه لابد أن يأتي

بشمرة ولا بد أن يكون فيه نفع للناس ، الا أن هذه الاستفادة ستبقى محدودة مشلولة مالم توفر لها وسائل الدعم الحقيقية، أعنى مالم تسير الجامعات حركة التعريب، وما دامت الدروس تلقى في الكليات العلمية باللغة الانجليزية أو الفرنسية، شأنها في الكثير من كليات الطب والهندسة والطبيعات والرياضيات ..

ومع ذلك إن جماعة متزايدة من المدرسين في هذه الاختصاصات صارت تساهم أكثر فأكثر في مؤتمرات علمية عربية، وتستمع إلى مادة اختصاصها يعبر عنها بعربية فصحي واضحة، بل إنهم هم أنفسهم صاروا يلقون بحوثهم بالعربية .. ولكنهم ما أن يرجعوا إلى معادل تدريسهم حتى يسيطر عليهم من جديد ما احتفظت به جذرائها من ثقل الماضي، وإذا هم ينخلولون أمام كابوس العادة ولا يبذلون ما يلزم من جهد قصد التحرر من قيود الاستعمار الذهني والثقافي التي يرزحون تحتها ..

هذا غلى أن عددا من الجامعات العربية يستخدم اللغة العربية أداة للتعبير والتدريس والتأليف في ميدان العلوم الانسانية أو الأساسية والمحضة ونشطت فيها بسبب ذلك حركة النشر، وتم الربط بين المنهج العلمي والكتاب الجامعي العربي.

ووضعت مراسيم تشريعية تنظم الظروف الحافزة بهذا الكتاب من تأليف وملاءمة للمناهج الرسمي واشراف ورقابة جامعية ونشر، وكذلك من وسائل الخفض من سعره حتى يكون في متناول الطلبة.

وفي هذا الميدان أيضاً لابد للعرب أن يتوجهوا أكثر فأكثر نحو العمل العلمي الثقافي المشترك، فالأحداث تتسارع، وكم من جهد ضاع وكم من وقت انفلت بسبب انفراط العقد وتشتت الصف ! ولم يعد من المنطقي ولا من المحتمل أن يستمر المطالع على مطالعة كتب تسمى بالكتاب المصري، أو الكتاب العراقي أو الكتاب السوري أو الكتاب المغربي ... ولا بد أن يتدارك

الوضع لمسيرة قافلة العلم العالمي، بأن يخطط لعمل جماعي تستعمل فيه الكفاءات كلها، مع مراعاة التوزيع الجغرافي العادل، فيعمل الكل معا، وتنبذ ظاهرة التعددية الاقليمية، في الحقل العلمي والثقافي.

ولعل الصبح قريب: افليس لمثل هذا ومن أجله قد بعثت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أي لجمع الكلمة وتوحيد الصف؟.

وفيما ستتخذ هذه المنظمة من قرارات وماتوصي به من توصيات وما تسهر به على متابعة تنفيذها من قبل الدول الأعضاء، وماتعمل على انشائه من معاهد ومؤسسات مخصصة مما سيسر تمكين الاستقلال الثقافي العلمي في الوطن العربي وتوطيد معالمة.

ولعل من أولى الخطوات التي يكون في الامكان اقرارها أن يفكر في وضع مناهج علمية موحدة، أو متقاربة على الأقل، في شتى الاختصاصات، وضبط أهدافها ومحتواها وتقييد المحتوى بالموضوعية وبالشمول بحيث تواكب حسب الطاقة آخر ما وصل اليه التقدم العلمي والتربوي.

وعندئذ يشترك الاختصاصيون في إيجاد كتب جامعية موحدة وتقسم الأعمال من طبع ونشر وتوزيع على الجامعات، فيختص كل بلد مثلاً بإحضار الكتاب التابع لاختصاص معين، ويتم التبادل بين البلدان عن طريق أجهزة المنظمة أو المؤسسات الخاصة التي تعمل على إيجادها، ويجب احداث المطابع المخصصة المجهزة بأحدث الأجهزة الموفرة للمتطلبات الأساسية للطباعة العصرية من اخراج يحافظ على سلامة البصر ويراعي المعطيات النفسانية والتربوية وينمي الملكات الجمالية.

وفي هذا العمل ما يحقق أمرين أساسيين:

أ) ان المنهاج الموحد والكتاب الموحد يساعدان على توحيد أنماط التفكير بين الشباب الطالب العربي.

ب) سيتضخم عدد الطلبة المقبلين على الكتاب الواحد وسيتضخم عدد النسخ المطبوعة من هذا الكتاب وفي ذلك ماسينقص من تكاليف الطبع ومايساعد على التخفيض في سعر الكتاب .

أضف إلى ذلك ماينغم الوطن العربي من اقتصاد في المجهود وربح في الوقت ، اذ يكون من اللازم أن يكرر العمل نفسه في كل بلد وأن يعاد التأليف في عين الاختصاص وعين المناهج تقريباً ، وألأري عندنا أنه ليس في هذه الاعادة افادة .. واما إذا ما رجعنا للوضع الحالي فيمكننا أن نثبت بعض الجداول الاحصائية وأن نستنبط منها بعض النتائج وقد يكون منها مايساعدنا على تقييم الانجازات كما قد يكون فيها مايوحي لنا بمقترحات عملية من شأنها أن تدعم الكتاب العلمي العربي .

فن الجداول الاحصائية اللوحة التالية وفيها تفصيل لما تم طبعه في العامين ١٩٧٠/١٩٧١ - ١٩٧٢/١٩٧١ حسب الكليات في جامعة دمشق ، بين كتب نشرت لأول مرة وكتب اعيد طبعها : (٩)

الكلية	عدد الكتب	%
الآداب	٣	٤
التجارة	٧	٩
التربية	١	١٣
الحقوق	٤	٥٢
الزراعة	٧	٩
الشريعة	١	١٣
الصيدلة	٦	٨
الطب	٢٠	٢٦ ٣٦٣
طب الاسنان	٨	١٠٣
العلوم	١٤	١٨١
الهندسة والفنون	٦	٨
المجموع	٧٧	

والملاحظ ان هذا الجدول ذو منوالين الأول تابع للكتب الطبية وتفوق نسبتها ثلث المجموع، واما الثاني فللعلوم ونسبته تناهز الخمس.

واقم بدمشق بمناسبة انعقاد مؤتمر اتحاد الجامعات العربية (نيسان ١٩٨٢) معرض للكتب العلمية العربية المنشورة بجامعتي تشرين وحلب، فيما بين ١٩٨١-١٩٨٢ فتوزعت هذه الكتب على النقط التالي:

الاختصاص	جامعة تشرين	جامعة حلب
زراعة	٢٤	٣٧٥ % ١٧
طب	٨	١٢
هندسة	١١	٢٨ ١٠ %
وتقنيات		
اقتصاد	—	٧
علوم	٦	٢
رياضيات	٣	٢٢ ٢٠٣ %
فيزياء	٣	١٤
كيمياء	٩	٦
المجموع	٦٤	١٠٨

و يلوح من ذلك أن أهم اختصاص في جامعة تشرين هو الزراعة، بينما تختص جامعة حلب بالهندسة والتقنيات.

ومن النشرة العربية للمطبوعات (ط. تونس ١٩٨١) نستمد المعلومات التالية فيما يخص المطبوعات العربية في العلوم:

المادة	مطبوعات ١٩٧٨	%	مطبوعات ١٩٧٩	%
العلوم البحتة	٦	١٣	٥	٤
الرياضيات	٣	٦.٥	١٠	٨
الفلك	٥	١٠.٨	٥	٤
الفيزياء	١٠	×٢١	٢٧	×٢١.٦
الكيمياء	٧	×١٥.٢	٣٧	×٢٩.٦
علوم الأرض				
(الجيولوجيا)	٦	١٣	١٦	١٢.٨
علم الأحياء	٤	٨	١٢	٩.٦
العلوم النباتية	٣	٦.٥	٥	٤
العلوم الحيوانية	٢	٤	٨	٦.٣
المجموع	٤٦		١٢٥	

وتبدو هذه المعطيات الإحصائية منوأة لسنة ١٩٧٨ أو سنة ١٩٧٩ ذات منوالين يتمثلان في عدد كتب الفيزياء وكتب الكيمياء مع تبادل في رتبتها في هاتين السنتين .

وأما المطبوعات العربية في التقنيات والعلوم التطبيقية فكانت على النمط التالي :

المادة	مطبوعات ١٩٧٨	%	مطبوعات ١٩٧٩	%	الجملة
التكنولوجيا	٤	٤	٤	٢.١	
الطب	٣٠	×٣٠	٥٦	×٣٠.١	٨٦

١٢٣	٢٣	١٢	١٢	الهندسة الميكانيكية
٤٦	٦٩	١٣	٣٣x	الزراعة
	١٦	٣	٢	العلوم المنزلية
٨٤	٣٧٦x	٧٠	١٤	ادارة الاعمال
	٥٩	١١	٣	الصناعات الكيماوية
	١٦	٣	١	الصناعات الثقيلة
	١٦	٣	١	البناء
		١٨٦	١٠٠	المجموع

وحسب هذا الجدول كان العدد الأوفر من نصيب الطب (٨٦ من ٢٨٦ وتليه ادارة الاعمال ٨٤ من ٢٨٦).

ولابد أن نشير ان عدد الكتب العربية المطبوعة في العلوم الإنسانية كانت ١٤١ عام ١٩٧٨ و٤١٧ عام ١٩٧٩، فبالجملة ان مجموع ما طبع من كتب في العلوم البحتة والرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء كان عام ١٩٧٨ لايتجاوز ٣١ من مجموع ٢٨٧ كتابا وعام ١٩٧٩ لايتجاوز ٨٤ من ٧٢٨ كتابا أي مايقل عن ١١٪.

وعن (دليل الكتب العلمية والتقنية الصادرة في الوطن العربي) الذي نشره (الاتحاد العربي للتعليم التقني) بمناسبة المعرض الأول للكتاب التقني (في تونس: ٢٤-٢٩ نيسان/ ابريل ١٩٨٢) نستمد المعلومات الاحصائية التالية عن الكتب الصادرة في مؤسسات الجمهورية العراقية:

المادة	الكلية أو الجامعة	عدد الكتب	المجموع	%
رياضيات	هندسة بغداد	٤	٥	٢٣
	جامعة الموصل	١		

		١٠	هندسة و احصاء	هندسة بغداد
١٣٦	٢٩	٧	هندسي	جامعة الموصل
		١٢		تكنولوجيا بغداد
٦٦	١٤	١٢	فيزياء	هندسة بغداد
		٢		جامعة الموصل
		١٦	كيمياء	هندسة بغداد
٩٩	٢١	٤		جامعة البصرة
		١		جامعة الموصل
٥٢	١١	٥	علوم الحياة	هندسة بغداد
		٦		جامعة الموصل
٤٢	٩	٣	علوم الارض	هندسة بغداد
		٦		جامعة الموصل
		٥	زراعة	جامعة البصرة
٢١٤	٤٥	٢٥		زراعة بغداد
		١٥		جامعة الموصل
		٧	طب	جامعة الموصل
٤٢	٩	١		جامعة البصرة
		١		جامعة المستنصرية
٣٧	٨	٤	طب بيطري	زراعة بغداد
		٤		جامعة الموصل
		٤	ادارة	جامعة الموصل
				كلية الادارة
٢٥	٥٣	٣٨		والاقتصاد
		١١		جامعة المستنصرية
٣٧	٨	٢	اقتصاد	جامعة الموصل
				كلية الادارة
		٦		والاقتصاد
	٢١٢	٢١٢	المجموع	

فبقطع النظر عن الكتب التابعة للعلوم الانسانية من ادارة واقتصاد ان
 المحل الأول في العراق، للزراعة (٢١٤٪) بينما لاتمثل الرياضيات سوى
 ٢٣٪ والكيمياء والفيزياء في مجموعها ١٦٥٪.

وفي الخلاصة اننا نخرج من الجداول الاحصائية السابقة عامتها باستنتاجين اثنين :

أولاً: ان حركة النشر في الميدان العلمي والتقني بالوطن العربي شرعت في نشاط متزايد في العشرية الماضية، ويبدو هذا الأمر بوضوح خاصة إذا ما قارناه بما كانت عليه هذه الحركة في بداية السبعينات. ففي (بيان الكتب اللبنانية المعروضة بمعرض تونس في ٢٠ أبريل ١٩٧٤ «١٦٠ صفحة») المنشور من قبل نقابة الناشرين بلبنان، لا يفوق عدد العناوين التابعة للعلوم جميعاً ٢٦ عنواناً جليها تحقيقات لكتب من التراث العلمي العربي، والباقي ترجمات عن الفرنسية أو الانجليزية لبحوث حول مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي أو لدراسات ونظرات فلسفية حول الفكر العلمي الجديد أو الوراثة الإنسانية الخ..

ثانياً: ان الوجهة العامة في العشرية الماضية كانت نحو العلوم التطبيقية فكان نصيب الأسد للزراعة والطب ثم تلجها الفيزياء والكيمياء واما حظ الرياضيات والعلوم البحتة (وهي أساس كل تقدم في العلوم والتقنيات) فكان في الحضيض.

وعلى هامش الكتاب الجامعي يجدر أن نشير الى الأعمال المكثفة التي يعمل بها الأساتذة، اما مباشرة واما بتكليفهم طلبتهم، ضمن شهادة الكفاءة للبحث أو الماجستير، من تحقيق لمعالم التراث العربي من المخطوطات العلمية، وقد ساهم معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب ومعهد المخطوطات العربية بالكويت في اصدار عدد من هذه التحقيقات، وهما يعدان النشر للكثير من غيرها، هذا علاوة على ما قام به الأفراد أنفسهم أو بعض المؤسسات الثقافية الجهوية بنشره.

ونذكر من بين هذه الانجازات ما قام به الدكتور أحمد يوسف الحسن من تحقيق لأعمال الجزري في ميدان علم الحيل، وما أصدره د. أحمد سليم سعيدان من كتب في الرياضيات (جوامع الحساب بالتخت والتراب لنصير الدين الطوسي، ١٩٦٧، فصول في الحساب الهندي للأقليدسي ١٩٧٣، الاعداد المتحابة لثابت بن قرة الخ) ود. رشدي راشد ود. صلاح أحمد (الباهر في الجبر للسموال المغربي) ورشدي راشد ود. جبار (كتاب الجبر والمقابلة لعمر الخيام ١٩٨١) ود. عبد الحميد صبره (شرح ما اشكل من مصادر اقليدس للخيام ١٩٧١، الشكوك على بطليموس لابن الهيثم) ود. نادر النابلسي (مفتاح الحساب لغياث الدين الكاشي) وما ساهمت به شخصيا في هذا المضمار (تلخيص اعمال الحساب لابن البناء المراكشي ١٩٦٩، الرسالة الالواحية المنسوبة إلى ابن سينا ١٩٧٥، رسالة ابن البناء في الاعداد التامة والناقصة والزائدة والمتحابة ١٩٧٦، رسالة القلصادي في ذوات الأسماء، ١٩٧٦ الخ).

جـ) الكتب المبسط: سيكون حديثنا عن هذا النوع مقتضبا اذ لا يمكن أن يعد هذا الصنف من الكتب العلمية، فإما هو إلا مجرد (رفع للجهل) او ان شئت هو من الوسائل التي من شأنها أن تساعد على الحصول على ثقافة عامة تجعل صاحبها يأخذ من كل شيء بطرف، دون تعمق وصدق معرفة، فإذا ما كان العلم نورا وإبصارا، والجهل ظلاما وعمى فهذه مرحلة وسطى، هي العشي، لا يتصور بها صاحبها المشاهدات على ماهي عليه، بل يحيط بها ضباب قائم.

ومثل هذه الكتب انما يليق بمستويات من التعليم وضيعة أو متوسطة ولا تلائم البتة التعليم العالي، وذلك أنها (لم تقرر بكل عمل في كل باب من علله ما يبعد عن المتأمل عن التقليد فيه) ولنا في مقدمة (القانون المسعودي) للبيروني ما يكفي لنقد التبسيط في الكتب، فهو يقول: (ولم اسلك

فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين في حل من طالع اعمالهم واستعمل زيجاتهم على فطايا التردد إلى قضايا التقليد، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية، وتعميتهم خير مازاولوه من عمل، وطبهم عنه كيفية ما أصلوه من أصل، حتى أحوجوا المتأخر عنهم في بعضها إلى استئناف التعليل، وفي بعضها إلى تكلف الانتقاد والتضليل...

على أنه، في بعض الظروف، قد يكون للكتاب المبسط، بل وللمقالة المبسطة، دور ذو بال، ففي عهد الاستعمار، اني نشرت، بعية جمع من الزملاء مقالات علمية في مجلة (المباحث) التونسية، قصدنا منها بعث الوعي في أوساط الشباب التونسي واحياء اعتزازه بذاته، خصوصا وقد عمل التعليم الرسمي على فسحه عن بيئته وفصله عن تراثه، وجاءت هذه المقالات رداً على مزاعم بعض المستشرقين وتوطيدا للخصال القومية، وارجاعا للمخترعات والمبتكرات العلمية والتقنية إلى أهلها من العرب متى ادعى مدع انها من وضع الغرب.

وحتى اليوم، رغم ما يبذل من جهود منذ الاستقلال في سبيل احياء التراث الحضاري والعلمي العربي، ما فتئ بعض الأساتذة يرون فائدة ونفعا في نشر كتب مبسطة حول الكون وما فيه وحول الأحياء والجوامد، والمياه والمعادن الخ (١٠)

(د) الكتاب الموجز: (ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشمل على حصر مسائله وادلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك محلا بالبلاغة وعسرا على الفهم). (وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل) (١١)

ولا يمكن أن يعتبر الكتاب الموجز إلا كمذكرة جمعت العبارات والعلاقات الرياضية بين مختلف المقادير، يستخدمها المطبق للعلم على الانجازات

العملية، فلا يكون في حاجة إلى إعادة التعليل وإلى البراهين والسلاسل المنطقية القياسية التي بها بلغ الباحث العالم المقرر لها مابين الظاهرات والمقادير من ارتباطات ..

ويكون استخدام هذا النوع من الكتب استخداماً آلياً كمن ضغط على زر من أزرار دولاب فتحركت أعضاؤه، أو كمن أدار مفتاحاً فاشتعلت الأنوار في جهاز من الأجهزة وارتسمت عليه رسوم وخطوط وانطبعت حروف وجمل وحصل السائل على الجواب عما كان خامر ذهنه من سؤال، وبدون شك أنه هكذا يصل إلى حل مشكلة ولكن الجهاز هو العقل المفكر، والسائل هو الآلة المسجلة.

...

الخاتمة :

رأينا فيما سبق ان خطوات العرب في مجال الكتاب العلمي، المؤلف والمترجم مازالت بسيطة، قصيرة ..
والركب يسر، والقافلة تسرع، والتخلف يتضاعف أشواطاً ... وتلمسنا عدداً من الحلول نرى من المفيد التذكير بأهمها :

— يجب القضاء على التعددية وعلى التشتت والعمل على اقرار مناهج مشتركة، والتعود على التعاون والترافق في تخطيط المشاريع وتنفيذها .

— يجب اتخاذ التدابير التي تهيئ على تشجيع العلماء والباحثين على التأليف والنشر، وذلك بأن يوفر لهم الوقت الكافي والوسائل المادية اللازمة من مكتبات ومخطوطات مصورة ومختبرات الخ، وأن يتم امدادهم بالمكافآت اللائقة .

— (لا بد من الإشارة الى وجوب المساواة المادية والمعنوية بين القائمين بالبحث العلمي من حيث المرتبات والتعويضات وما إليها من أمور مادية

ومعنوية اذا تساوت مؤهلاتهم وكفاءاتهم).

— يجب العمل على تيسير النشر لما يجد تأليفه أو ترجمته من الكتب العلمية، فلا شيء أشد احباطاً لعزيمة الكاتب من أن يرى عمله المخطوط متراكماً، فلا يصل إنتاجه الى القارئ المستهلك، ويسود سوقه الكساد والغبن.

— يجب الجهد في إحداث ما أقر احداثه من مؤسسة عربية للترجمة والنشر يوكل اليها ترجمة الكتب والمؤلفات الأجنبية في العلوم.

— من الواجب أن يلقي معهد المخطوطات بالكويت ومعهد التراث العلمي العربي بحلب من الدعم ما يلزم كي يتعاونوا على نشر أكثر ما يمكن من معالم التراث العلمي بعد تحقيقها والتقديم لها وتحديثها والتعليق والتعقيب عليها.

— وبالطبع ان كل الحلول المقترحة تكون عديمة الجدوى مادامت بعض الجامعات متمادية في التدريس والبحث بلغة غير العربية، فيكون الركن الأساسي المتأكد اذن اقرار التعريب في كل الجامعات العربية، درسا وبحثاً وتأليفاً وتحريراً لرسائل الدكتوراه الخ.. ويكون من وظائف اتحاد الجامعات العربية أن يسهر على التنسيق العلمي بين الجامعات، بواسطة مكتب له داخل كل جامعة، فيعمل على تبادل التجارب وعلى تعميم الاعلام بين المؤسسات العلمية في البلدان العربية حتى تتكامل الجهود وتتضافر دون تكرار أو اعادة.

— وبالجملـة إن الأوان قد آن كي يتعمق العرب من جديد في بحار الرياضيات الحديثة والعلوم البحتة جمعاء وأن يأخذوا بنصيب من التقنيات المعاصرة ومن الصناعات الالكترونية والتكنولوجيا الذرية كي يكونوا من جديد في الطليعة ويكسبوا رهان العصر ويفوزوا بالعيش السني والحياة السعيدة والمناعة والعزة والكرامة.



من مصادر البحث ومراجعته :

- ١ — معرض الكتاب: تونس ٢٠ ابريل ١٩٧٤، بيان الكتب اللبنانية المعروضة في المعرض، نقابة الناشرين، لبنان.
- ٢ — النشرة العربية للمطبوعات ١٩٧٨، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ادارة التوثيق والمعلومات، تونس ١٩٨١.
- ٣ — النشرة العربية للمطبوعات ١٩٧٩، دار الكتب الوطنية، تونس ١٩٨١.
- ٤ — مجلة الكتاب (الجزائر) عدد ٨، آب ١٩٧٣، نشرة اخبارية تصدرها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- ٥ — البحوث المقدمة لمؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي، بغداد ٤-٧/٣/١٩٧٨، ومنها:
ث تعريب التعليم الجامعي بين العلم والوجدان، د. فخري محمد صالح الدباغ.
— عملية التعريب ومستلزماتها في المجالات العلمية والتعليمية، د. كمال عبدالله القيسي.
— اللغة العربية والتعليم الجامعي، د. حسين نصار.
- ٦ — البحوث المقدمة لمؤتمر التعريب، دمشق ٢٧ نيسان — ٣ أيار ١٩٨٢ ومنها:
— تعريب التعليم الجامعي: (العلوم الطبيعية) أفكار واقتراحات، د. عبدالمجيد نصير.
— تعريب التعليم الجامعي: بالقطر العراقي، د. ياسين خليل.
- ٧ — البحوث المقدمة لمؤتمر (نحو نشر عربي هادف)، بغداد، آذار ١٩٧٧، ومنها:

- البحث والنشر في العالم العربي، خطة وخطى، عبدالمجيد نصير.
- ٨ — مقالات: د. أحمد سعيدان: حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد ١:
- حول تعريب العلوم: مشاكل وحلول وآراء، عين المجلة عدد ٢.
- ٩ — دراسة حول مشروع انشاء معهد عربي للترجمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٢.
- ١٠ - توصيات لجان المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي والجامعي، دمشق ٢٨-٣١ آب ١٩٧١.
- ١١ - مجلة المعرفة، دمشق، عدد ١٣٠، كانون الأول ١٩٧٢، مقال الكتاب الجامعي للأساتذة أحمد القادري وشحادة الحوري وناظم كلاس.
- ١٢ - المواضيع التي وقع اعدادها ضمن شهادة الكفاءة في البحث أو التعمق في البحث ونوقشت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس من سنة ١٩٧٠ الى ١٩٧٩/١٢/٣١ (قسم العربية) ثم من ١٩٧٩/١٢/٣١ الى ١٩٨١/١٢/٣١، نشرة على الآلة الراقنة صادرة عن كلية الآداب بتونس.
- ١٣ - مطبوعات المجلس الأعلى للعلوم، مجلدان (٤٢٠-٠٨٠٤ ص) الجمهورية السورية.

الهوامش

- (١) كتاب الحيوان: سلسلة الروائع، عدد ١٨ ص ٧.
- (٢) كتاب الجبر والمقابلة، المقدمة، القاهرة ١٩٣٧.
- (٣) كتب هذا سنة ٤١٧هـ/١٠٢٩، عيون الأنباء ج ٣ ص ١٥٣ ط، بيروت ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧.
- (٤) انظر مثلاً توصيات لجان المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي والجامعي، دمشق ٢٨-٣١/٨/١٩٧١.

- ٥ (ريفارول: خطاب في شمولية اللغة الفرنسية، نشر الهاتيني، ص ١٧ .
- ٦ (انظر بحثنا المقدم للمؤتمر السادس لتاريخ العلوم عند العرب المنعقد بجامعة حلب (ابريل/ نيسان ١٩٨٢) حول أهمية الترجمة حضاريا ودورها في نشر الوعي العلمي .
- ٧ (انظر بحث الدكتور ياسين خليل حول (تعريب التعليم الجامعي بالقطر العراقي) ط - جامعة دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٢١ - ٢٧ .
- ٨ (انظر مثلا: كتاب الأمراض النسائية للدكتور بشير ناصيف (حلب) والدكتور محمد الشلي (تونس) ط : كلية الطب، تونس، ١٩٨١ .
- ٩ (بنصرف عن مقال: الكتاب الجامعي، للأساتذة أحمد القادري وشهادة الحوري وناظم كلاس، مجلة المعرفة، دمشق، عدد ١٣٠، كانون الأول ١٩٧٢ ص ٧٨ .
- ١٠ (انظر الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨ .
- ١١ (ابن خلدون: المقدمة، الباب ٥، الفصل ٢٨ ص ٥٣٢ .



الكتاب المترجم

بقتلم : شعادة اخوري



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

القسم الأول – مقدمة :

قبل الدخول في البحث عن الكتاب المترجم : واقع ومشكلاته وطرق النهوض به لاداء دوره في المستقبل اداء أفضل بوصفه اداة اساسية من أدوات المعرفة والثقافة أقدم بايجاز شيئاً عن معنى الترجمة ونشأتها .

أولاً – شيء من اللغة :

• جاء في لسان العرب لابن منظور: (يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى، والشخص يسمى ترجمان وهو الذي يفسر الكلام) .
وجاء في القاموس المحيط للفيروز ابادي: الترجمان كعنوان: المفسر، وترجمه وترجم عنه، والفعل يدل على أصالة التاء) .

وجاء في المعجم الوسيط الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة :
ترجم الكلام بينه ووضحه ، وترجم كلام غيره وعنه : نقله من لغة إلى
أخرى ، وترجم لفلان : ذكر ترجمته ، والترجمان : المترجم وجمعه تراجم
وترجمة وترجمة فلان ، سيرته وحياته وجمعه تراجم .

• وقد وردت كلمتا ترجمان وتراجم في شعر المتنبي . قال أبو الطيب
يصف شعب بوان :

ملاعب جنة لوسار فيها سليمان لسار بترجمان

وقال يصف جيش الروم في معركة الحدث :

تجمع فيه كل لن وأمة فما تفهم الحداث الا التراجم

• وقد كان لكلمة ترجمة معنى واسع هو فسر وأوضح وأبان . وبهذا
المعنى استخدمها ابن النديم في كتابه الفهرست في معرض حديثه عن
كتاب كليله ودمنة عندما قال : فسر عبدالله بن المقفع ، فكان التفسير
والترجمة واحداً . غير أن الترجمة انتقل معناها بعد ذلك من الشمول إلى
التخصيص أي : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى .

• ويستدل من ذلك كله ان كلمة (ترجمة) ومثلها (ترجمان)
(تراجم) عربية النجار، صريحة الأصل فصيحة لاليس فيها، وهي ليست
من أصل عجمي ولا محولة عن معنى آخر.

ثانياً — شيء من التاريخ :

• الترجمة قديمة قدم المجتمعات البشرية، كانت وسيلة الاتصال
والتفاهم بين كل جماعة تتكلم بلسان ما والجماعات الأخرى التي تتكلم
بالسنة أخرى .

ودواعي الاتصال والتفاهم منها مايتعلق بشؤون التبادل السياسي
والتجاري والفكري في أيام السلم ومنها مايتصل بشؤون النزاع والقتال ثم

مايعقبهما من تفاوض في أيام الحرب .

• وقد وجدت ستمائة لوحة من الخزف المحروق في تل العمارنة بمدينة المنيا بمصر في البقعة التي تضم مدينة اخت اتون التي أسسها الفرعون اخناتون في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وقد يكون اخناتون قد أحضر أكثرها من طيبة إلى عاصمته الجديدة .

وهذه اللوحات مكتوبة باللغة الاكادية وبالخط المسماري وجاءت مصر من جهات عدة في الخارج : من بابل وآشور وبلاد الحثيين وجزر اليونان . وكانت مصر ترد على المراسلات باللغة الاكادية أيضاً . فقد عثر الباحثون على بعض رسائل مصرية بين آثار الحثيين بهذه اللغة . ماذا يعني هذا ؟ انه يعني ان اللغة الاكادية كانت في ذلك العصر لغة دولية تتخاطب بها دول مختلفة اللغات .

• ان هذه الحال لا بد أن استدعت أن يكون لدى كل دولة عدد من المترجمين ينقلون إلى لغة بلادهم المراسلات الواردة بالاكادية ويسطرون بهذه اللغة وبالخط المسماري مراسلات بلدهم إلى البلدان الأخرى .

• اذن فان الترجمة كانت موجودة منذ ذلك الحين المغرق في القدم . ثم استمرت فيما تلا من زمن . وقد أجمع المؤرخون ان قياصرة الروم وأكاسرة الفرس كانوا يتخذون في دواوينهم ترجمة .

• وليس عجباً أن تصطلح مجموعة دول على اعتبار احدى اللغات لغة دولية تتم بها المخاطبات ، فذلك أيسر من استخدام عدة لغات بمستوى واحد . كانت في حقبة ما اللغة الاكادية دولية ، ثم دار الزمن دورته واللغة تعلو بعلو اهلها وتقوى بقوتهم وتنحسر وتضعف بانحسارهم وضعفهم ، فاذا باليونانية ، بعد فتوح الاسكندر المقدوني تصبح لغة العالم المتحضر ، ثم اللاتينية بعد سيادة روما وامتداد سيطرتها ، ثم اللغة العربية بعد الفتوحات المؤثرة وانتشار الإسلام في بقاع الأرض . وبعد فترة صارت الفرنسية لغة

دولية بعد الثورة الفرنسية وحروب بونابرت وظلت متقدمة لغات العالم قرناً ونصف القرن.

واليوم نشهد انتشار الانكليزية ورجحان كفتها في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة مع وجود خمس لغات أخرى ذات أهمية واتساع وهي اللغات التي اعتمدتها الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو والهيئات الدولية: الفرنسية والاسبانية والروسية والصينية والعربية.

• ان الترجمة — كما نرى — حرفة قديمة اقتضاها وجود جماعات بشرية متعددة اللغات. ويواكب ازدهارها ازدياد الاتصال بين الأمم والشعوب وبين الدول والمنظمات ونمو التبادل التجاري واتساع المعارف البشرية. ولذا نجد في هذا العصر الذي قصرت فيه المسافات بين البلدان ونشط التواصل بين الناس على كل صعيد ونشأ العديد من الهيئات وكثرت فيه الاجتماعات واللقاءات، وسعى كل شعب لمعرفة ما توصلت إليه الشعوب الأخرى في ميادين المعرفة، قد أصبحت ضرورة حياتية وأدركت مكانة مرموقة وحدثت لها الأقسام والمعاهد ووضعت لها الأصول والقواعد وراجت بكل تفرعاتها، من الترجمة الفورية إلى الترجمة الإدارية والاعلامية فالترجمة الثقافية والعلمية، وهي الترجمة التي يدور حديثنا حولها اليوم والتي غايتها ان تنقل من لغة إلى لغة ما تبشركه العقول وتسطره الأقلام.

ثالثاً — المبادرة العربية :

• لعل أول من بدأ التأليف في الفلسفة والعلم والأدب وتوسع فيه واجاد هم الاغريق. وقد اعطى هذا الشعب النابه آثاراً فكرية باهرة مثل مؤلفات هيرودوت وهوميروس وافلاطون وارسطو وبطليموس وفيثاغورس وابوقراط وجالينوس واقليدس في التاريخ والأدب والفلسفة والمنطق والفلك والطب والرياضيات .. مستفيدين مما حصلت عليه الشعوب الأخرى من معارف وتجارب ومعلومات علمية.

وعندما تغلب الرومان على الاغريق واستولوا على بلادهم تأثروا بثقافتهم بل تكلم أكثر رجال الفكر والادباء والمثقفون في روما اللغة اليونانية إلى جانب لغتهم اللاتينية ومع هذا لم يهتم الرومان بنقل الآثار الفكرية اليونانية إلى لغتهم .

• اما فارس فقد ترجمت القليل عن الهند . ويذكر ان كتاب كليلة ودمنة الذي نقله عبدالله بن المقفع من اللغة الفهلوية — الفارسية القديمة — إلى العربية وزاد عليه ستة أبواب كان قد نقله الطبيب الفارسي برزويه ابن أزرهر من اللغة السنسكريتية التي كتبه بها الفيلسوف الهندي بيدبا لدبشليم الملك إلى اللغة الفهلوية . ولكن هذا التواصل بين الثقافتين الهندية والفارسية ظل محدوداً .

• ولذا يمكن القول ان أول حركة واسعة ومنظمة للترجمة العلمية الشقافية بين الامم ولغاتنا انما هي الحركة التي بادر العرب إلى القيام بها في عهد الدولة الاموية ثم تتابعت بقوة أكبر في العصر العباسي .
وتتميز هذه الحركة بثلاث صفات :

١ — تعدد مصادرها : ترجم العرب عن الهندية ولاسيما ما يتعلق بالحساب والارقام وممن ترجم منها منكه الهندي ومن الفارسية وممن ترجم منها ابن المقفع وآل نوبخت . ولكن المصدر الرئيسي الذي ترجموا منه واغترفوا من معينه هو المؤلفات اليونانية وممن ترجم منها حنين بن اسحق العبادي ويوحنا بن ماسويه وثابت بن قرة الحراني ويحيى بن عدي وآخرون كثيرون .

٢ — اتساعها : شملت حركة الترجمة في القرنين الثاني والثالث للهجرة شتى المعارف والعلوم : الرياضيات والفلك والفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والهندسة والسياسة المدنية . اما الأدب فلم يترجموا منه إلا القليل مثل كتاب كليلة ودمنة ، ولم ينقلوا الأدب اليوناني لمخالطته الأساطير

الدينية من جهة ولاعتزازهم بأدبهم شعره ونثره من جهة أخرى .

٣ - تنظيماً : بدأت الترجمة في عصر بني أمية بفضل خالد بن يزيد وترجمت في هذا العصر بعض كتب الكيمياء والطب الا انها نشطت أيام الدولة العباسية : انشأ المنصور ديوان الترجمة فوسعه الرشيد ثم جاء المأمون فنظم هذا النشاط العلمي وانشأ بيت الحكمة بمثابة مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة اقام فيه طائفة من المترجمين أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال .

لقد كانت حركة الترجمة هذه السبيل إلى اطلاعهم على معارف ذلك العصر فتمثلوها فكانت منطلقهم إلى الكشف والابداع .

• وحسبنا ان نذكر بعض الأسماء لتدلنا على ماقدّمه العرب إلى الإنسانية وما أعطوه بعد أخذ، وما أوجدوه بعد اقتباس . نذكر الكندي وابن يونس والبيروني وابن الهيثم في الفيزياء والبصريات وياقوت وأبا الفداء والادريسي في الجغرافيا . وجابر بن حيان في الكيمياء والكاشي والخوارزمي والطوسي في الرياضيات وبني موسى بن شاكر في الفلك وابن البيطار في الزراعة والرازي وابن سينا وابن النفيس في الطب وابن خلدون في التاريخ وعلم العمران وغيرهم كثير .

رابعاً - بين العرب والغرب :

• ثم تتالت الأحداث على العرب وانتابتهم عوامل الضعف فطعم بهم الخصوم والاعداء وتالت عليهم الفتن والحروب وتسلط الأعاجم على مقاليد الحكم ، فخبأ النور الذي سطع قرونا وعمت الحياة العامة ومنها الجانب الفكري الثقافي مظاهر الخمول والركود .

• ... واستفاقت أوروبا مما كانت تنخبط فيه من جهل واستسلام للخرافة بتأثير اتصالها بالعرب فأخذت تنهل من معين الثقافة العربية معتمدة على الترجمة . وكانت هذه الحركة نشيطة شاملة منحت الغرب القدرة على

ادراك ثقافة العرب وعلومهم التي طالما اعجب بها ، ونقلها إلى اللاتينية فكانت اللبنة الأساسية في نهضته الحديثة التي مازالت متصلة حتى اليوم .

• ومرة ثانية بزغت شمس النهضة العربية في مطلع القرن الماضي في وادي النيل . وقد أدرك العرب بعد غزوة بونابرت ان القوة المادية مردها التقدم العلمي فشرعوا في عهد محمد علي يسعون لتدارك ما فاتهم للحاق بالركب ، ففتحت المدارس للطب والهندسة والبيطرة والزراعة والصناعات والفنون والادارة وصدرت الصحف وارسلت البعثات العلمية ، وكان للترجمة مدرستها ودورها في نقل العلوم والمعارف .

نشطت هذه الحركة حيناً وتعثرت حيناً آخر وانتقلت من مصر إلى بلاد الشام ثم إلى الأقطار العربية الأخرى وهي مازالت حتى اليوم تتطلب المزيد من الدعم والمزيد من التخطيط والمزيد من الرعاية كيما تؤدي دورها وتبلغ هدفها .

• لقد كان (الكتاب المترجم) حجر الزاوية في كل نهضة ثقافية ، انه الوسيلة دوماً لبلوغ الهدف وأدراك القصد وتجاوز التأخر والرمز إلى تطلع الإنسان إلى تجاوز الواقع <http://Archivebeta.Sakib.net>

خامساً - أنواع الترجمة :

يجري التفريق بين نوعين متميزين من الترجمة :

١ - الترجمة الشفوية الفورية : التي وجدت تلبية لاحتياجات التفاهم بين متكلمي بلهجات مختلفة . وهي قديمة النشوء وصارت في العصر الحالي صناعة أو اختصاصاً قائماً بذاته له معاهده وبرامجه وأصوله واساليبه يرغب فيه الراغبون ولا يتقنه إلا المتفوقون .

٢ - الترجمة الكتابية : التي تتم بنقل المكتوب إلى مكتوب ، ويفترض أن تكون هذه الترجمة أكثر دقة وأفضل اداء من الترجمة الفورية لان اداتها القلم والورق وتفسح المجال للتأني والتجويد وتلك اداتها الصوت واللسان

ولا تنفس المجال لتأن أو تجويد.

أ) الترجمة الادارية والاعلامية: وهي التي تدخل في عمل بعض الادارات والدوائر والمؤسسات والتي تعنى بنقل الأخبار والمقالات لوسائل الاعلام، ومثلها الترجمة السياسية والتجارية.

ب) الترجمة الثقافية العلمية: وهي ترجمة الآثار والمؤلفات الفكرية والعلمية والأدبية والفنية من لغة إلى أخرى.

وهذا اللون من الترجمة عظيم الأهمية والأثر لأنه طريق التبادل الثقافي بين الأمم والشعوب والسبيل إلى الرقي العلمي واغناء المعرفة وبالتالي هو دعامة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء الحضارة القومية المزدهرة.

وهذه الترجمة تنقسم بدورها إلى قسمين هما الترجمة العلمية والترجمة الأدبية :

١) الترجمة العلمية: يقصد بها ترجمة العلوم الأساسية أو البحتة: كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة (البيولوجيا) وعلم الأرض (الجيولوجيا) وعلم النبات وعلم الحيوان وكتب العلوم التطبيقية: الطب والصيدلة والهندسات على أنواعها المختلفة وكتب التكنولوجيا والتقنيات ..

تتميز هذه الترجمة بأنه ينبغي أن تتوفر لها الدقة والوضوح في المعنى مع صحة المصطلح وسلامة اللغة وليس مطلوباً فيها حسن الأسلوب وجمال العبارة .

ويشترط في المترجم اتقانه للغة العربية واللغة المترجم منها بالإضافة إلى الاختصاص في المادة العلمية فالطب لا يترجمه غير الطبيب والكيمياء لا يترجمها الا مختص بها .

اما كتب العلوم الاجتماعية والانسانية فإلى جانب اقتضاها الشروط

السابقة فانها تحتاج إلى عبارة جيدة واسلوب شائق، لأن القارئ يحرص على أن تكون هذه الكتب جيدة المضمون والشكل معا فيستفيد ويستمتع ولذا فان المترجم ينبغي أن يحسن تخير العبارة واجادة العرض .

وتندرج تحت هذا العنوان كتب الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السكان وعلم التربية والنفوس والتاريخ والاثار الجغرافية والاقتصاد والقانون والسياسة ..

٢) الترجمة الأدبية: ان هذه الترجمة أصعب من الترجمة العلمية لأن النص الأدبي ليس فكرة فحسب بل ينطوي على أحاسيس المؤلف وتخيلاته، وهو نص نسجه يد شاعر أو ناثر موهوب قصد أن يكون جميلا ومشيراً. ولذا كان أمام المترجم أن يأتي بنص مقابل يتوفر فيه إلى جانب الامانة في النقل ما يبرز النص الأصلي ولا يضعف أثره ولا ينقص من جماله. ولذا قيل بحق لا يترجم الشعر إلا شاعر ولا ينقل الأدب إلا أديب .

ويقصد بكتب الأدب كتب الشعر والمسرحية والقصة والرواية .. واما كتب النقد الأدبي والدراسات الأدبية فهي تقع موقعا وسطا بين الآداب وبين العلوم الاجتماعية والانسانية موضوعا وأسلوبا .

القسم الثاني: الكتاب المترجم واقعا وطموحا:

• اذا ما أردنا أن نتفحص حال الكتاب المترجم في الوطن العربي، كان علينا أن نشأوله من جوانب عدة كيما نتبين واقعه الراهن ونستطلع مشكلاته ونقف على حلول لهذه المشكلات آخذين بالنظر فترة السبعينات لنستطلع مابعدھا .

• وأهم الجوانب الجديرة بالبحث هي: المؤسسات التي تتولى الترجمة، ادارة ورعاية وتنظيما وتمويلا، ثم المترجمون الذين ينهضون بأعباء الترجمة وما يتصل بعملهم من شؤون علمية ولغوية وفنية وبعد ذلك الكتاب المترجم

نفسه من ناحية التداول والتسويق والتوزيع وما يعترض ذلك من صعوبات وعقبات .

أولاً - مؤسسات الترجمة :

ان مؤسسات الترجمة في الوطن العربي متنوعة منها جهات وطنية وجهات خارجية واجنبية .

١ - الجهات الوطنية :

تنقسم الجهات الوطنية إلى فئتين : فئة المؤسسات الحكومية الرسمية وفئة المؤسسات الخاصة .

اما المؤسسات الحكومية فهي ادارات انشأتها وزارات الثقافة أو التربية أو الاعلام أو التعليم العالي أو الجامعات أو المجالس المختصة بالعلوم والآداب والفنون مثل مديرية التأليف والترجمة بوزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ...

أما المؤسسات الخاصة فهي دور النشر التي تعمل في مجال الترجمة والتأليف تمارسه بمثابة نشاط ثقافي اقتصادي يستهدف الربح مثل دار دمشق في سورية والدار العربية للكتاب (دار تونسية - ليبية) ... وفي أحيان قليلة يقوم أفراد بترجمة كتب بدافع شخصي وطبعها وبيعها لحسابهم الخاص .

٢ - الجهات الخارجية والأجنبية :

أ) منظمة اليونسكو: تنفذ هذه المنظمة بانتظام منذ عام ١٩٤٨ برنامجاً يرمي إلى ترجمة المؤلفات الادبية المكتوبة بلغات قليلة الانتشار إلى اللغتين الانكليزية والفرنسية بصورة خاصة . ويتم اختيار هذه المؤلفات بناء على توصيات الدول الأعضاء واقتراحاتها ومشاورة لجنة من الخبراء يسميهم المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية بالنسبة للمؤلفات الكلاسيكية

ومشاورة الاتحاد الدولي لنوادي القلم بالنسبة للمؤلفات التي كتبها معاصرون. وترعى اليونسكو كذلك في بعض الحالات ترجمات إلى غير اللغتين المذكورتين.

ويتم نشر هذه الترجمات اعتماداً على مخصصات اليونسكو لهذا الغرض ومساهمات الدول المعنية. مثال ذلك ان المجلس اللبناني لترجمة الروائع ينهض بنجاح ببرنامج ترجمات من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية ومن هذه اللغات إلى اللغة العربية على أساس من التعاون الوثيق مع منظمة اليونسكو. وبلغ ماترجم من العربية إلى الفرنسية (١٤) كتاباً، وإلى الانكليزية (٧) كتب وإلى كل من الالمانية والاسبانية كتاباً واحداً ومن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية (١٠) كتب.

وتنفذ منظمة اليونسكو برامج أخرى تحت عناوين مختلفة منها: المساهمة في نشاطات الدول الأعضاء، الشعراء في العالم، مداخل إلى الاداب الشرقية، وبرنامج ترجمة كتب حول الاتجاهات الجديدة في تدريس العلوم.

ب) المؤسسات الأجنبية: تتولى بعض مؤسسات الترجمة والنشر الأجنبية نقل كتب إلى اللغة العربية ونشرها. فقد كانت مؤسسة فرانكلن تتولى ترجمة مجموعات من المؤلفات الأمريكية وتطبعها في بعض البلدان العربية، وتقوم دار نشر ليديرد ودار نشر لونغماتز البريطانيتان، بالتعاون مع مكتبة لبنان في بيروت بترجمة سلاسل ليديرد في مختلف الموضوعات لسائر الاعمار وخاصة من مرحلة رياض الأطفال الى نهاية المرحلة المتوسطة.

وكذلك هناك مؤسسات ومراكز اعلام اجنبية تقوم بترجمة كتب ودراسات خارج البلدان العربية مثل مؤسسات الترجمة والنشر السوفيتية. • ان بعض مؤسسات الترجمة الحكومية في الأقطار العربية قديم

النشأة، وبعضها حديثها، وهي متفاوتة فيما تصدره من كتب من حيث الكم والكيف وثمة أقطار عربية لم تحدث فيها بعد مثل هذه المؤسسات .

ومن المهم أن نلاحظ النقاط التالية عن واقع الترجمة في السبعينات :

• من الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤسسات قد قام بعمل جليل النفع . فقد أصدرت المؤسسات التالية خلال الأعوام ١٩٧٠ - ١٩٨٠ الأعداد الآتي ذكرها : وزارة الثقافة السورية (٢٨٥) كتاباً، وزارة التعليم العالي السورية (٧٠) كتاباً، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت (١٥٠) كتاباً، كما أصدرت المؤسسات الأردنية (٣٨) كتاباً والمؤسسات الجزائرية (٣٩) كتاباً والمؤسسات الليبية (٥٧) كتاباً مترجماً . وبالطبع شاركت في العطاء أيضاً دور النشر الحكومية ودور النشر الخاصة وإن كنا لانملك احصاءات عن هذه الدور الأخيرة .

ولكن المتشعب لحركة النشر يلاحظ أن حجم الانتاج الفكري عامة ترجمة وتأليفاً ما يزال دون الحد المطلوب سواء بالقياس إلى عدد السكان أو بالقياس الى الحاجات الفكرية والتعليمية . وثمة نقص واضح في ميدان الترجمة في بعض التخصصات الهامة كالزراعة والنقطة والصيدلة والطب والتمريض والالكترونيات وغير ذلك من الموضوعات العلمية والتقنية .. ولعل من الأسباب الجذرية في هذا النقص ان التعليم الجامعي مازال في أكثر البلدان العربية غير معرب في الأقسام العلمية ، أي يقدم للطلبة باحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنسية . ومن هنا لم تترجم الكتب المنهجية العلمية الجامعية إلى العربية ولا الكتب المرجعية الموسعة ولا الدراسات والبحوث العلمية إلا في حدود ضيقة جداً في بعض الأقطار العربية ، لأن المدرس والدارس يجدان بغيتهما باللغة الاجنبية .

ان تعريب التعليم بكل مستوياته وتخصصاته ينشط حركة الترجمة ويزيدها فعالية واثراً في الثقافة القومية ولكن من الحق أن يقال ان

الترجمة بدورها، إذا احكم التخطيط لها يمكن أن تساعد على التعريب وتشجع عليه عندما توفر له الكتب الصالحة للتدريس .

ان التعريب يجد في الترجمة مدده وغذائه والترجمة تجد في التعريب اثرها وجدواها . ومع تقدير الجهود التي بذلتها مؤسسات الترجمة حكومية وخاصة لا بد من ابداء الملاحظات التالية عن انتاجها في السبعينات وما قبلها :

(أ) لم تف هذه الحركة بالحاجات الملحة والمتنوعة للمجتمع العربي، ولم تراع تماما تطوره الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وآفاق هذا التطور في المستقبل .

وقد صدرت عن دور النشر كتب كثيرة ليست بذات نفع للقراء أو لا تحمل لهم إلا اليسير منه، في حين ان كتبها تعالج موضوعات مهمة جداً لم تنصدها هذه الدور لأسباب شتى .

(ب) لم تلتزم هذه المؤسسات بمعايير دقيقة من ناحية الاداء اللغوي واستخدام المصطلح . ولذا تجد إلى جانب المؤلفات والترجمات المتقنة العديد من الترجمات التي تفتقر إلى الدقة العلمية واللغوية وتعوزها أبسط الشروط الواجب توفرها من حيث المضمون والشكل .

(ج) يغلب على هذه المؤسسات الطابع القطري، تخطيطاً وتنفيذاً، تمويللاً وتوزيعاً، ومازال التعاون العربي في هذا المجال في حده الأدنى أحياناً ويكاد ينعدم في أحيان أخرى .

٣ - المؤسسات العربية للترجمة :

من هنا يبدو ان الحاجة ملحة إلى قيام مركز أو مؤسسة تعنى بالتعريب والترجمة والتأليف والنشر وتتمتع بصفتين اساسيتين : الأولى أن تكون مؤسسة عربية تنهض بجهد عربي شامل وتستفيد من الطاقات العربية المستوفرة وتستهدف خدمة التعريب والتثقيف العام في الوطن العربي كله،

والثانية أن تكون مؤسسة قادرة من حيث التمويل والتخطيط والتنفيذ وتعتمد على جهاز اداري وفني قدير.

ان مثل هذه المؤسسة لاتحل محل المؤسسات الحكومية والخاصة التي تعمل في مجال الترجمة بل تكمل عملها وتكون علاقتها بها علاقة تعاون لاتنافس: انها (بيت الحكمة) مرة جديدة.

ان الشقافة العربية في اتساع وانفتاح متزايدين على ثقافات العالم، وتعريب التعليم بسائر مستوياته وتخصصاته صار مطلباً ملحاً ولذا سيكون دور الترجمة الثقافية والعلمية أكبر منه في أي عهد مضى، ولا بد في هذه الحالة من مؤسسة قومية قادرة ولا بد كذلك من أن تنشط المؤسسات الحكومية والخاصة القائمة بل وأن تقوم مؤسسات قطرية جديدة، شريطة أن يتوفر لهذا العمل المتسع الكبير قدر ملائم من التخطيط والتنسيق.

• واني لآخشي أن يظن طان اننا نحن العرب نهتم وحدنا بالترجمة لاننا نستشعر تقصيرا في ميدان العلوم والتكنولوجيا في هذا العصر بالنسبة إلى الدول المصنعة المتقدمة ونحاول أن نتدارك هذا التقصير بطريق ترجمة امهات الكتب في هذه الموضوعات، وان الدول التي قطعت شوطاً من التقدم لاتحتاج إلى الترجمة. ذلك ان واقع الحال خلاف ذلك أي أن الترجمة أكثر ماتكون نشاطاً في الدول المتقدمة لان التنافس في ميدان المعرفة ولاسيما المعرفة التكنولوجية والحرص على الاطلاع على اكتشافات العلماء وابحاثهم بلغات أخرى يدفع الدول المتقدمة إلى الاهتمام بالترجمة كل إلى لغتها. وطبعاً يكون حجم الترجمة من لغة ما تبعاً لما يؤلف بها من مصنفات تتميز بالابداع العلمي أو الأدبي أو الفني ونذكر على سبيل المثال ان عدد الترجمات عام ١٩٧٣ من الانكليزية إلى غيرها من اللغات ١٨٣٥٠ ومن الفرنسية ٥٩٩٣ ومن الروسية ١١٠٥ ومن الالمانية ٢٧٧٤ ومن الاسبانية ١٣٦٨ ومن الايطالية ١١٣٦.

وبلغ ماترجمته منظمة اليونسكو وحدها خلال السنوات الثلاثين الأخيرة مايزيد عن (٦٠٠) كتاب ضمن مجموعة واحدة هي مجموعة الأعمال الممثلة لآداب بلدانها .

وتبلغ نسبة المترجم إلى المطبوع مؤلفاً ومترجماً معا حوالي ٩% في العالم في حين ان هذه النسبة لا تتوفر عادة في البلدان العربية فان دليل الكتاب المصري لسنة ١٩٧٦ الذي تصدره الهيئة المصرية العامة للكتاب ضم ثباتاً لـ ١٦٢٠٠ عنوان منها ٢٢٩٤ عنوانا لكتب مترجمة أي بنسبة ٧٠٦% .

٤ - اسلوب العمل - الاختيار:

يلاحظ ان اسلوب العمل متشابه لدى المؤسسات العربية الحكومية للترجمة والنشر ول بعضها أنظمة مفصلة تضبط أعمالها . اما اختيار الكتاب المراد ترجمته ، وهذا الاختيار هو حجر الزاوية في العملية ونقطة الانطلاق ، فيتم من قبل الادارة المختصة منفردة حيناً أو بيت بشأنه خبير أو لجنة حيناً آخر ، ثم يجري تكليف المترجم بواسطة مراسلة أو عقد أصولي . وبعد انجاز الترجمة يجري فحص المخطوط والنظر في أمر مراجعته .

ان اختيار الكتاب هو حجر الزاوية كما اسلفنا وذلك لأن الانتاج الفكري في العالم المتقدم قد بلغ من حيث الكيف والكم حداً معجزاً ولذا يتوجب عند الاختيار:

- (١) انتقاء مايلبي حاجة أساسية لدى فئة من فئات القراء أو مايلبي متطلبات التقدم والرفي اللذين ينشدهما المجتمع العربي .
- (٢) ان تراعى (الحداثة) بالنسبة للكتب العلمية اذ ان لهذه الكتب اعماراً تقصر باستمرار بسبب التطور السريع الذي يطرأ على المعارف في الحقبة الأخيرة .
- (٣) ايجاد (توازن) بين الأنواع المختارة كيلا نغفل نوعاً نحن بحاجة إليه ،

مع وضع سلم أفضليات لأنواع الكتب التي نحن بحاجة، ومراعاة تعدد المصادر واللغات المترجم عنها كيلا نقف عند مصدر واحد أو لغة واحدة .

٥ - حقوق المؤلف :

ان من الموضوعات المتصلة بمؤسسات الترجمة والنشر حكومية كانت أو خاصة موضوع مراعاة حقوق المؤلف واحترامها والاستئذان من المصدر الأصلي : المؤلف والناشر .. وليس الوضع ازاء هذه القضية موحداً في الأقطار العربية ففي حين تراعي بعض المؤسسات هذه الحقوق وتدفع المقابل النقدي المترتب على ترجمة الكتاب تعتبر مؤسسات أخرى ان هذا الأمر يعوق الترجمة لما يتطلب من اجراءات ادارية والتزامات مالية تتعلق بالمؤلف والناشر الأصلي وان الدول المصنعة المتقدمة المنتجة للكتب الشفافية ولاسيما العلمية قد أخذت منا كثيراً فلا ضير اذا نحن اخذنا منها القليل ..

والى أن يجد هذا الموضوع حلاً شاملاً ، وفي اعتقادي ان الاقطار العربية مستنظم عاجلاً أو آجلاً إلى الاتفاقات الدولية لحقوق المؤلفين، نجد من الضرورة بمكان أن تصدى جميع الدول العربية على الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف التي اقراها مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي المنعقد في دورته الثالثة ببغداد من ١٩٨١/١١/٥ مع التقيد بتنفيذ احكامها .

ثانياً - المترجمون :

ان الكتاب المترجم - اذا احسن اختياره لقيمه العلمية أو الأدبية أو الفنية باللغة الأصل التي ألف بها - بحاجة إلى المترجم المجيد لينقله إلى اللغة العربية، ورب مترجم يضاهي الأصل معنى ومبنى ومترجم حاد عن الأصل أو صار صورة شواء عنه .

ان الترجمة الجيدة تخضع لشروط أهمها : الامانة في النقل ، والدقة في

اختيار اللفظ، ووضع المصطلح الصحيح موضعه، والايضاح في التعبير، والاسراع في الانجاز.

فهل يتوافر في الوطن العربي مترجمون مجيدون؟ انهم قلة بالنسبة لمن يقوم بالترجمة واقل من القلة بالنسبة إلى العدد المطلوب لمواجهة عملية نقل المعرفة إلى العربية نقلاً خَسناً وعلى نطاق الحاجة واتساع الطموح.

لقد احصت احدى مؤسسات الترجمة الحكومية عدد من تعاون معها من المترجمين فبلغ ١٦٣ مترجماً. ولكن بعد تفحص انتاجهم وتقويمه تبين أن ٧٥ منهم ثبتت كفاءتهم فتكون النسبة ٤٥%.

١ - تكوين المترجمين:

لقد أشرنا في حديثنا عن الترجمة العلمية الى أنه يشترط في المترجم اتقانه اللغة العربية واللغة المترجم منها بالإضافة إلى الاختصاص في المادة العلمية فلا يترجم الطب إلا الطبيب واشرنا في حديثنا عن الترجمة الأدبية انه لا يترجم الشعر إلا شاعر ولا ينقل الأدب إلا أديب. فكيف يكون تكوين المترجمين إذن؟ تفصيل ذلك كما يلي:

(أ) ان المترجم ينبغي أن يكون مثقفاً باللغة العربية صرفها ونحوها واملأها مسلماً ببلاغتها وحسن بيانها.

(ب) وينبغي أن يتقن لغة اجنبية اتقاناً كاملاً، ومن الأفضل أن يتقن لغتين اثنتين لتكون خياراته أوسع ومقارناته أفضل.

(ج) وينبغي أن يكون مختصاً في المادة العلمية المترجمة في الترجمة العلمية وأن يكون ذواقة للأدب أو اديبا في الترجمة الأدبية.

ان العناية بتدريس اللغات في المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية؛ اللغة العربية واللغات الاجنبية تتوفر الشروط الأولى لمترجمين نابھين في كل ميدان من ميادين المعرفة ثم ان للممارسة دورها الكبير في هذا المجال.

وثمة شرط هو سر النجاح في الترجمة باعتبارها انتاجاً فكرياً يداني

التأليف و يقارب الابداع ، الا وهو الرغبة الشخصية في ممارسة الترجمة فلا يؤديها المترجم وجلاً أو خجولاً أو مرغماً بل ينصرف إليها مختاراً مسروراً راضياً ، فيسهل عليه عسيرها وينقاد له جموحها .

والترجمة بعد ليست عودة إلى التراث بل هي اضافة اليه وليست عطاء من الذات بل أخذ من (الغير) انها ليست انغلاقاً على الماضي أو الذات بل انفتاح على الجديد الذي لدى الآخرين .

وفي الوقت ذاته ليست الترجمة تنكراً للموروث من الثقافة بل هي اغناء له وليست انسلخاً من الاصاله بل هي تأصيل الجديد . ان مثقفا لا يعيش عصره ولا يؤمن بالتعاون والتواصل بين البشر ولا يتمتع بفكر متفتح خلاق لا يستطيع أن يكون مترجماً بل لا يقدر أن يكون قارئاً ومستفيداً .

نعود إلى القول : ما السبيل إلى مساعدة المترجم على التجويد في الصنعة إن هو ملك أسبابها ؟

يمكن أن نذكر الأمور التالية :
• اقامة دورات تدريبية لتدريس الأصول والأساليب لكل فئة من فئات المترجمين .

• اتاحة الفرصة للمترجمين لحضور المؤتمرات والندوات والاجتماعات واللقاءات التي تتعلق بميدان ترجمتهم .

• منح المترجمين اجوراً مجزية والاعلان عن جوائز تعطى للمتفوقين منهم .

٢ - مدارس الترجمة :

وثمة سؤال : هل يستفاد من خريجي مدارس الترجمة ومعاهداها في مجال الترجمة العلمية والثقافية ؟

ان هؤلاء الخريجين يتم اعدادهم لممارسة الترجمة الفورية والترجمة الادارية والاعلامية والسياسية والتجارية ، وهذه ميادين هامة تعتمد على الترجمة في عملها اليومي ، الا ان التجربة قد دلت ان اقلية من خريجي

هذه المدارس والمعاهد يمكنها أن تترجم كتبها في الموضوعات التاريخية والاقتصادية والادبية والتنموية والتربوية اذا اجتمع لها مع الاعداد والتأهيل ميل وموهبة وممارسة .

ومن الجدير بالذكر ان ثمة مدارس ومعاهد واقساما جامعية عدة لاعداد المترجمين: المدرسة العليا في الجزائر ١٩٦٤ مدرسة القاهرة ١٩٦٨ ، مدرسة القاهرة الثانية ١٩٧٤ ، قسم الترجمة بمعهد بورقيبة بتونس ١٩٧٨ ، قسم الترجمة في جامعة الموصل ١٩٧٦ ، قسم الترجمة في الجامعة المستنصرية ١٩٧٦ ، ودبلوم الترجمة في جامعات دمشق وحلب وتشرين ، مراكز اللغات والترجمة في جامعتي عمان واليرموك ١٩٨٢ ، ومدرسة الترجمة في جامعة القديس يوسف ببيروت ١٩٨٠ .

هذا وقد وافق مجلس جامعة الدول العربية في شهر آذار/ مارس ١٩٨٢ على احداث معهد عربي للترجمة يكون مرتبطاً بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم يقبل حملة الاجازة في الاداب ، ويكون التدريس فيه مدة سنتين لاعداد مترجمين فوريين ومترجمين كتابيين بمستوى عال لسد الحاجة الى هذه الفئة في المنظمات الدولية والاقليمية والوطنية .

٣ - الترجمة والمراجعة :

ثمة من يقول ان المراجعة ليست واجبة وانه يتحتم أن يتحمل المترجم مسؤولية الترجمة كاملة ، وقد يميل المترجم اذا علم ان ثمة من يراجع عمله ، الى التراخي في ضبط الترجمة اعتمادا على ان هناك من يدقق عمله ويسد فجواته ، والرأي الآخر ان المراجعة واجبة وان الفرد مهما جد تفوته امور تنتقص من قيمة الترجمة فيتداركها المراجع .

وتبين التجربة ان المراجعة تكون واجبة في أحوال وغير واجبة في أحوال أخرى ، ويرجع تقدير الأمور إلى المشرفين على مؤسسات الترجمة . وعلى أية حال فالمراجعة في اعتقادي نوعان :

(١) المراجعة اللغوية: تستهدف التأكد من سلامة اللغة العربية من حيث بنية الجملة وتركيبها ومن حيث الضبط القاعدي في الصرف والنحو تلافياً للاخطاء التي شاعت مؤخراً عند المؤلفين والمترجمين وفي الكتب العلمية والأدبية على السواء .

(٢) المراجعة العلمية: تستهدف التأكد من سلامة النص من الناحية العلمية، فقد يغفل المترجم عن جملة أو حاشية أو تعليق أو رقم أو يخطئ في ايراد معادلة، فيكون عمل المراجع سد النقص وتلافي الخطأ .
وبعد كيف نختار المراجع؟

في حالات يتعذر اختيار مراجع لما يتمتع به المترجم من الثقة والمقدرة والشهرة . وعندما نحتاج لاختياره يفترض فيه أن يكون أطول تجربة وأرسخ قدماً وأوفر خبرة من المترجم في سائر الجوانب المتعلقة بموضوع الكتاب المترجم .

ARCHIVE

٤ - تشجيع المترجمين:

ان الاجور التي تدفع للمترجمين باسم تعويضات أو جوائز أو مكافآت لقاء عملهم مازال حتى الآن وفي أغلب الأحيان غير مجزية ودون الحد المطلوب ولاسيما انهم يقومون بعمل الترجمة في أوقات راحتهم لكونهم غير متفرغين لها .

ان مكافأة المترجم تحسب على أساس الكلمة في النص الأجنبي وللمراجع نسبة من مكافأة المترجم .

ان اعادة النظر في سلم أجرة الكلمة واجبة بين سنة وأخرى مراعاة لارتفاع تكاليف المعيشة من جهة وتقديراً للجهد الذهني الذي يبذله المترجم .

ومن الممكن أن يشجع المترجمون ولاسيما المجيدون منهم بتقديم

جوائز تشجيعية لمن يترجم أفضل كتاب علمي أو أدبي أو فني، وجوائز تقديرية لأفضل مترجمين في مجال ما، على مجمل انتاجهم، تقديرا لما قدموا للثقافة العربية من خدمة جليلة.

ليس في ميدان الترجمة تفرغ حتى الآن فالترجمة تمارس إلى جانب أعمال أخرى، والمترجمون هم اساتذة في الجامعات ومدرسون في الثانويات ورجال قضاء وإدارة يمارسون الترجمة بدافع الميل الفكري أو لتحقيق انتاج علمي أو أدبي أو للحصول على دخل اضافي.

وانه ليشغل هدفاً واجب التحقيق أن يتفرغ المترجمون المجيدون لعمل الترجمة وتكفل المؤسسات لهم حياة كريمة.

٥ - جمعيات المترجمين واتحاداتهم :

ان الترجمة عمل قائم بذاته ومستقل عن كل عمل آخر، ونتيجة ذلك ينبغي أن يلتقي المترجمون في تنظيم مهني : رابطة أو جمعية أو اتحاد يعمل على الرقي بمستوى العمل، يحدد الواجبات ويدافع عن الحقوق.

وقد دلت المعلومات التي تم الحصول عليها على وجود اتحاد للمترجمين في الجمهورية العراقية وفي الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية في حين انهم يقبلون اعضاء في اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية واطعضاء في رابطة الأدباء والكتاب والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية.

ان تمييزا ما كان قائما بين التأليف والترجمة فيرجح التأليف على الترجمة وتعتبر الترجمة دونه ولكن هذه النظرة أخذت تتعدل بعد أن ثبت ان الترجمة تحتاج إلى مؤهلات ومواهب لا تقل عما يحتاج اليه التأليف.. وبالتالي صار ممكنا أن تشكل للمترجمين اتحادات مستقلة غير أن ثمة شروطا اخرى ينبغي توافرها :

(١) أن يوجد في قطر ماعدد من المترجمين يمارسون الترجمة دون انقطاع.

٢) أن توجد في القطر مؤسسات تقدم للمترجمين الممارسين عملاً مستمراً.
٣) أن يحظى الكتاب المترجم بالتقدير اللائق به وتقام له المعارض وترصد له الجوائز.

ان توافر هذه الشروط يستتبع قيام روابط واتحادات ... ولكن عدم توافرها كاملة في الحاضر لا يعطينا من السعي لاقامة اتحادات قطرية في بعض الأقطار إن لم يكن جميعها ثم انشاء اتحاد عربي عام.

ثالثاً - الكتاب المترجم :

ان الكتب المترجمة في قطر ما يمكن أن ينظر اليها من زاويتين : زاوية الكم اذ يجب أن يتناسب عددها مع عدد السكان، قلة وكثرة ومع الحاجات التعليمية والثقافية للشعب، وكذلك من زاوية الكيف إذ ينبغي أن تكون موضوعاتها ملية للوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وخط التطور الذي يسير فيه القطر.

١) أرقام ومعلومات :
ويمكننا أن نستعرض الأرقام والمعلومات التي وردت في الدراسات التي حصلت عليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن بعض الأقطار العربية عن الفترة الواقعة بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨٠ لنستطلع الوضع القائم ونصل إلى بعض الاستنتاجات :

• بلغ عدد الكتب المترجمة التي صدرت في الأردن خلال السنوات العشر الأخيرة ١٩٧٠ - ١٩٨٠ (٣٨) كتاباً موزعة كما يلي :

آثار وسياسة	٢
اداب	٨
تراث وتاريخ	٩
تربية واجتماع	٧
علوم سياسية	١٢

ويستنتج من ذلك ان العدد قليل لعدم وجود مؤسسات ناشطة في ميدان الترجمة والنشر، كما ان العدد الأكبر من هذه الكتب في موضوعات أدبية وتاريخية وتراثية وتربوية، هذا عكس ما ينبغي في بلد آخذ بأسباب التقدم العلمي والتقني وقد أحسن مجمع اللغة العربية الاردني باصداره (٥) خمسة كتب علمية والجمعية العلمية الملكية باصدارها (٧) سبعة كتب علمية للأطفال .

ومما يلفت النظر ان الترجمة من العربية الى اللغات الاجنبية نشطت هذه الفترة في الاردن فبلغ عدد الكتب المترجمة (١٢) اثني عشر كتاباً، وهو عمل جدير بالمتابعة والتشجيع .

وتضمنت الدراسة عن الترجمة في القطر الجزائري كشفاً بما ترجم خلال السنوات العشر ١٩٧٠-١٩٨٠ فبلغ العدد (٣٩) كتاباً موزعة كما يلي :

١٣
ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

التاريخ

التربية

الادب والثقافة العامة ٢١

القانون والاقتصاد ٢

وتبين الدراسة باسهاب قلة الترجمات وتوقع أن تنشط بعد أن صدرت التشريعات والأنظمة المتعلقة بهذا القطاع .

وقدمت الدراسة عن واقع الترجمة في القطر العربي السوري كشفاً بما ترجمته بعض المؤسسات الحكومية والخاصة خلال الفترة الزمنية المذكورة : أصدرت مديرية التأليف والترجمة بوزارة الثقافة والارشاد القومي خلال السنوات العشر ١٩٧٠-١٩٨٠ (٢٨٥) كتاباً مترجماً موزعة كما يلي :

الاداب والفنون ٥٥

العلوم	١٩
الفلسفة	٣٧
الاقتصاد	٢٢
التنمية والعالم الثالث	٢٥
المذاهب الاقتصادية	
والاجتماعية	١٨
النقد	٢٥
المسرح	١٣
علم الاجتماع	١٣
تاريخ الأدب	٤
علم النفس	٣
التربية	٥
السينما	٢
التاريخ والسياسة	١٦
القضية الفلسطينية	٤
قصص الأطفال	٢٤

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وأصدرت مديرية الترجمة بوزارة التعليم العالي (٧٠) كتاباً موزعة كما

يلي :

الرياضيات	١٨
الطب	٤
الكيمياء	١٠
طب اسنان	١
الفيزياء	٩
بيولوجيا	١
الهندسة	١٠
لسانيات	١

٤	تخطيط تربوي
١	مكتبات
٤	علم اجتماع
٣	في التراث العلمي
٤	ادب ومسرح

واصدرت دور النشر الخاصة ماينوف عن مائة كتاب مترجم .

• يستنتج من هذه المعطيات ان وزارة الثقافة والارشاد القومي عمدت إلى شكل من أشكال التوازن بين الأنواع المترجمة : اداب، علوم اجتماعية وإنسانية، علوم طبيعية محاولة أن تستجيب لحاجات الفئات المختلفة من القراء : الكبار والصغار والمهتمين بالعلوم والمهتمين بالاداب والانسانيات ، في حين ان وزارة التعليم العالي قد انصرفت إلى اصدار كتب علمية وتقنية موسعة لتكون مراجع للمدرسين والدارسين في الجامعات والمعاهد التقنية ، رفقاً للكتب التدريسية المقررة أو المنهجية .

واعطتنا الدراسة الموضوعية عن واقع الترجمة في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية في السبعينات قائمة تتضمن (٥٧) كتاباً مترجماً موزعة كما يلي :

٣١	التاريخ
١	شعر
٦	الجغرافيا
١	اقتصاد
٢	اثار ورحلات
٢	طب
١	فلسفة

علوم	٣
قصص	٥
نقط	١
مسرح	٣
فكر سياسي	١

وقد رجح في هذه القائمة جانب الأدب والعلوم الاجتماعية على جانب العلوم الأساسية والتطبيقية .

ان تحقيق توازن بين أنواع المعارف من جهة وربط حركة الترجمة بحركة المجتمع : حاجاته وتطلعاته وإيجاد تكامل بين النشاطات في ميدان الترجمة في الأفق العربي باعتبار ان الساحة الثقافية العربية ساحة واحدة ، كل هذا يتطلب وضع خطة لعمل الترجمة على صعيد كل قطر على حدة ووضع خطة عربية شاملة تنسق بين الخطط القطرية وتكملها وتدفعها نحو الأفضل والأشمل .

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

(٢) تداول الكتاب وتوزيعه :

يلاحظ مما تضمنته الدراسات ومن النتائج التي تحرّزها المعارض التي تنظم الكتاب المؤلف والمترجم على السواء ، ان رواج الكتاب المترجم في القطر الذي ينشر فيه ، رواج حسن مقبول بل يفوق أحياناً توقعات المسؤولين عن ترجمته ونشره . ومما يساعد على ذلك ان مؤسسات النشر الحكومية تعتمد إلى بيع الكتاب المترجم بسعر التكلفة وأحياناً بأقل منها على اعتبار أنها بذلك تؤدي خدمة ثقافية للمواطنين .

بيد ان تداول الكتاب بين الأفق العربي ليس مرضياً وتحول دونه عقبات كثيرة منها المراقبة وكلفة الشحن والرسوم العالية والجمركية والاجراءات الادارية والمصرفية .

وفي وسع الدوائر الحكومية المختصة أن تخفف هذه القيود وتتفق على
أجور شحن مخفضة وغيرها من التدابير التي تساعد على انتقال الكتاب
وتداوله .

ومن الطرق السريعة في هذا المجال عقد اتفاقيات ثنائية امتداداً
للاتفاقات الثقافية المعقود بين البلدان العربية تتضمن تسهيل تداول الكتاب
وانتقاله من قطر إلى قطر بل تتضمن مشروعات مشتركة في الترجمة والطبع
والنشر .

ومن وسائل ترويج الكتاب المترجم :

• الاعلان عنه والتعريف به في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام
المختلفة .

• اقامة معارض متنقلة للكتب المترجمة، تنقل من قطر إلى آخر مع منح
حسم للمشتريين .

رابعاً — التخطيط والتنسيق :

ان الواقع الراهن في الوطن العربي، يقتضي حرصاً على بلوغ الهدف
منها وجني الثمرات مما يبذل من مجهودات، ايجاد تخطيط في العمل
وتنسيق له على المستويين القطري والقومي، وتأمل أن يتم ذلك ويعطي في
الثمانينات بعض النتائج المرجوة .

وقد انيط العمل على ايجاد هذا التغيير بالمنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم بوصفها الهيئة الموكول اليها رعاية شؤون الثقافة والتربية والعلم في
الوطن العربي . وبناء على قرارات المؤتمر العام للمنظمة ومجلسها
التنفيذي، احدثت وحدة للترجمة في نطاق ادارة الثقافة بدأت عملها في
منتصف عام ١٩٨١ .

وقد وضعت هذه الوحدة، على أساس معطيات كثيرة منها عدة دراسات

عن واقع الترجمة في الأفطار العربية تتضمن شرحاً وتفصيلاً عن الأمور الجارية ومقترحات بناءة حول ما يجب أن تكون عليه الحال، مشروع خطة للترجمة عرض على المجلس التنفيذي للمنظمة في دورته الثلاثين المنعقدة بالحمامات في تونس في شهر أغسطس/ آب ١٩٨٢ فحظيت بالموافقة.

وقد ابلغت المنظمة هذه الخطة للجان الوطنية في الأفطار العربية لتعممها على الجهات الرسمية والأهلية المعنية بالترجمة وتطلب العمل على تنفيذها وإعلام المنظمة بما يتم ابداءه حولها من ملاحظات.

وبعد أن عرضت الخطة إلى حال الترجمة اليوم وحددت ملامحها المستقبلية مبينة المنطلقات والأهداف والأسس والوسائل والمراحل وطرائق التنفيذ، أشارت بوضوح أن تنفيذ هذه الخطة لا يتم الا على أساس التعاون الفعلي بين المنظمة والجهزة والمؤسسات المختصة في البلدان العربية، وان للمنظمة دوراً في هذا العمل وان لكل قطر دوراً ايضاً يكمل واحدهما الآخر.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

(١) دور البلدان العربية:

دعت الخطة الأفطار العربية إلى الأخذ بالأمور التالية:

أ - دعم مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية لتنهض بمهمتها على الوجه المطلوب ومساندة دور النشر الخاصة وتشجيعها.

ب - احداث مؤسسات للترجمة والنشر أو التشجيع على احداثها في الأفطار التي لا تتوافر فيها أو التي ليس فيها العدد الكافي.

ج - اصدار التشريعات لتنظيم حركة الترجمة والرقي بها.

وقد حثت الخطة على أن ينشأ في كل قطر جهاز (هيئة أو لجنة دائمة) تمثل فيه مؤسسات الترجمة والنشر على أنواعها ويتولى مايلي:

أ - رسم خطة للترجمة على نطاق القطر وفق الاحتياجات القائمة والامكانيات المتوافرة.

ب - تبادل المعلومات فيما بين هذه المؤسسات من النواحي الفنية والمالية والتسويقية والاعلامية.

ج - تنظيم الاتصال والتعاون مع الأجهزة والمؤسسات المماثلة في الأقطار العربية الأخرى.

د - تنظيم الاتصال بالمنظمة العربية ومدها بالمعلومات والقوائم والكشوف التي تطلبها.

هـ - تنظيم الاتصال والتعاون مع المنظمة العالمية (اليونسكو) والهيئات الدولية والاجنبية والعربية مثل اتحاد المترجمين الدولي واتحاد الناشرين العرب واتحاد الموزعين العرب والجامعات والمجامع العلمية واللغوية والاتحادات العلمية والمهنية.

و - اصدار ببلوغرافيا سنوية بالكتب المترجمة.

كذلك دعت الخطة الدول العربية الى الاهتمام بالأمور التالية المتصلة بالترجمة :

أ - حقوق المؤلفين.

ب - اختيار الكتب للترجمة.

ج - المستوى الفني للترجمة.

د - تكوين المترجمين وتدريبهم.

هـ - انشاء جمعية أو اتحاد للمترجمين.

و - تيسير تداول الكتاب المترجم وتوزيعه.

٢ - دور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

يتمثل دور المنظمة في أمور تنسيقية وتنظيمية أهمها:

(أ) التوثيق: وهو اجراء عملية مسح شامل لما تمت ترجمته الى العربية حتى الآن في مختلف فروع المعرفة وحصر ذلك حصرا دقيقا واصداره في نشرات ببلوغرافية، تعمم على الجهات المعنية في البلدان العربية.

ونظراً لاتساع هذا العمل، فقد رئي أن يتم على مراحل، وقد تم الشروع فعلاً بحصر الكتب المترجمة في الفترة الواقعة بين ١٩٧٠-١٩٨٠ وجرى العمل حينئذ لاصدار هذه النشرة البيبلوغرافية في نهاية ١٩٨٢.

ب) الاعلام: تجمع المنظمة معلومات من مؤسسات الترجمة والنشر في الوطن العربي عن الكتب التي تمت ترجمتها عام كذا وعن الكتب التي ادرجت ترجمتها في خطة العمل. لسنة كذا أو الكتب الجارية ترجمتها وطباعتها، فتعمد إلى تعميم هذه المعلومات على الجهات المعنية بالترجمة لأخذ العلم بذلك، بقصد عدم تكرار العمل ومنع الازدواجية وعدم اضاعه الجهد والمال. وقد تم فعلاً وضع استمارة لهذا الغرض والحصول على معلومات جرى تعميمها وقد بلغ عدد الاشعارات التي عمت حتى الآن ٧٤ اشعاراً. ويؤمل أن تجنسى فائدة من هذا العمل غير ماذكر سابقاً وهو أن يؤدي إلى اقامة علاقات تعاون في مجال الطبع والنشر والتوزيع بين المؤسسات المختلفة على أساس معرفة كل منها ماتفعله المؤسسات الأخرى.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وفي مرحلة متقدمة يمكن أن تحصل المنظمة من كل مؤسسة على خططها السنوية التي تتضمن عناوين الكتب التي ترغب في ترجمتها فتتولى المنظمة التنسيق بين هذه الخطط لمنع الازدواجية بين المؤسسات ومساعدتها على التخصص في قطاع من قطاعات المعرفة وتحقيق التكامل بينها.

جـ - الارشاد : يقصد به مساعدة الناشرين والمترجمين على التلاقي والتعاون المفيد ومساعدتهم على اختيار الكتب الأفضل للترجمة.

وقد قامت المنظمة بالخطوات التالية:

١ - طلبت كشوفاً من البلدان العربية عن المؤسسات التي تتولى الترجمة

والنشر سواء كانت مؤسسات حكومية أو دور نشر خاصة وفق استمارة أعدت لهذا الغرض.

وقد حصلت المنظمة حتى الآن على (١٥) استمارة من عدد من الأقطار العربية.

٢ — طلبت من البلدان العربية أسماء المترجمين الذين يتولون الترجمة العلمية والثقافية مع بيان اختصاصاتهم ولغاتهم ونتاجهم وعناوينهم، وفق استمارة أعدت لهذا الغرض.

وقد حصلت المنظمة حتى الآن على (١٠٨) استمارات عن مترجمين تشتمل على معلومات موسعة كما حصلت على قوائم تضم أسماء (٤٥٤) مترجماً بمعلومات موجزة.

وستعمل المنظمة على إصدار دليل بالمترجمين ومؤسسات الترجمة يضم المعلومات التي تم الحصول عليها وإن لم تكن شاملة، آملة في أن يستكمل في السنة القادمة وإن بقيد، رغم عدم شموله، في التعريف بالمترجمين والمؤسسات على نطاق قطري ونطاق قومي.

٣ — طلبت من البلدان العربية موافاتها بقوائم بالكتب الأجنبية تصلح للتريب وعلى (١٦٠) اقتراحا بكتب تصلح للتجيم.

وستعرض هذه القوائم على لجنة تشكّلها المنظمة للنظر فيها واعتمادها ثم التوصية بتعريبها وتجيمها.

د — التعاون: إن المنظمة وهي الهيئة العربية التي تعمل على إيجاد ثقافة عربية موحدة تستطيع أن تساهم في الوصل بين الأقطار العربية لتقييم علاقات تعاون بينها وإبرام اتفاقيات ثنائية بشأن الترجمة والنشر والتوزيع ووضع وتنفيذ مشروعات مشتركة في هذه الميادين.

الخاتمة :

ان جهدا كبيرا ومنظما ينبغي أن يبذل في هذا العقد، الثمانينات، من أجل (الكتاب المترجم) الذي نرغب فيه، وهو جدير بهذا الجهد لأنه الجسر الواصل بيننا وبين الثقافات المختلفة في البلدان الأخرى ونقطة البداية في بناء ثقافة قومية عربية مزدهرة في هذا العصر، موصولة الجذور بترائنا الفكري العربي المجيد ومنفتحة على أفضل ماحقق الفكر الإنساني من ابداعات وكشوف في المناطق الأخرى من العالم .



تعقيب

بحث الأستاذ شحادة الخوري عن «الكتاب المترجم» صديقي خطاب



ARCHIVE

هذا البحث دراسة ممتعة عن الكتاب المترجم الى اللغة العربية في الماضي وفي الحاضر، وما يمكن أن يكون حاله في المستقبل، ولعل هذا البحث والدراسة المستفيضة التي نشرها صاحبها في العام الماضي في المجلة العربية للثقافة (عدد مارس - سبتمبر) التي تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم يكشفان عن احاطة الأستاذ شحادة الخوري الواسعة بموضوع الترجمة، ومعرفته الجيدة بواقعها، وما تجابهه حركة الترجمة من مشكلات، وجعلته هذه المعرفة يطرح حلولاً تكاد أن تكون في جملتها جامعة مانعة، وليس في الأمر غرابة، فلقد كانت الترجمة شوقاً كابده الأستاذ شحادة الخوري سنوات طويلة، مما يجعل الاضافة الى هذا البحث تبدو هامشية. ولكن قد تشفع للمعلق تجربة متواضعة في هذا الميدان تجعل له وجهة نظر ازاء القضايا التي تعرض لها باحثنا الكريم.

وقد لا يختلف اثنان في اهمية الترجمة في أية نهضة حضارية ، وأنها حجر زاوية في كل نهضة ثقافية ، وسبيل الى الرقي العلمي (وقد تعمدت أن احذف أُل التعريف التي وضعها الأستاذ الباحث على كل كلمة «زاوية» و «سبيل» باعتبار أن هناك سبلا أخرى لعل أهمها ابداع الأمة الذاتى) ، ولقد لعبت الترجمة دورا له خطره في حضارتنا في الماضي ولعل الحديث عن تلك التجربة ليس من قبيل التغني بالماضي بقدر ما هو استفادة منه .

يقول المستشرق بيرنارد لويس في كتاب صدر في هذا العام بعنوان Muslim Discovery of Europe « كانت اللغة العربية في الواقع هي اللغة الوحيدة للحكومة وللتجارة وللثقافة في الاراضي الاسلامية ، وحلت بسرعة مذهشة محل اللغات الشقية الأولى (في هذه الاراضي) مثل اللاتينية والأغريقية والقبطية والسريانية والفارسية » (ص ٧١) ثم يتحدث عن حركة الترجمة الى اللغة العربية الى أن يقول :

« ان الترجمات العربية من اليونانية تتألف في الأساس من كتب تتناول موضوعين هما الفلسفة والعلوم . الأول يتألف من مؤلفات افلاطون وارسطو الكلاسيكية وعدد من الفلاسفة القدامى الآخرين .. والموضوع الثاني يشمل الطب والتنجيم والفلك والسيما والكيمياء والفيزياء والرياضيات . وقد وجه أيضا بعض الاهتمام بالجانب التقني ولاسيما المؤلفات التي تتناول الزراعة . » (ص ٧٤) .

وقد تقولون ولكن هذا المستشرق لم يأت بجديد ، ولكنني أردت من هذا أن يكون مقدمة لاقتباس آخر من نفس الصفحة والصفحة التالية لما يمكن أن يكون صفة أخرى تضاف الى الصفات الثلاث التي أشار اليها الأستاذ الباحث في معرض حديثه عن حركة الترجمة هذه وهي تعدد المصادر والاتساع والتنظيم . يقول بيرنارد لويس :

« كان المعيار الاساسي في الاختيار هو الفائدة مع أن هذا يمكن أن يؤدي مع الزمن كما يظهر وبالاتقال من التنجيم الى الفلك ومن السيمياء الى الكيمياء، الى فضول علمي أكثر حيادا. وكان معيار الفائدة ينطبق على الفلسفة بقدر ما ينطبق على العلم. ويجب ألا تفهم الفائدة بالمعنى النفعي الضيق. فهي تشمل أعمالا غايتها تمكين الانسان من ادراك ماسماه فلاسفة المسلمين السعادة. وهذا التبرير للفلسفة بالرغم من أنه قد صيغ بعبارات مجردة وتناول أفكارا مجردة الا أنه كان يقوم على السعي وراء بعض المكاسب المعينة الروحية والمادية. فاذا كان العلم يهتم بصحة الانسان وسلامته في هذه الدنيا، فان الفلسفة تساعد في اعداده للدار الآخرة ». (ص ٧٤-٧٥).

وأما الدكتور سيد حسين نصر فانه يقول في مادة « التصور الاسلامي للحياة الفكرية » في المجلد الثاني من Dictionary of the History of Ideas :

« إن عصر الترجمة الذهبي امتد نحو مائة وخمسين عاما، من عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) الى عام ٣٠٠ هـ (٩١٢ م). وقد ترجم الى العربية خلال هذه الفترة عدد كبير من النصوص الاغريقية والأماطانية في الفلسفة وفي العلوم بأوسع معنى للكلمة، وكانت الترجمة تتم في بعض الأحيان من الاغريقية مباشرة وفي أحيان أخرى عن لغة وسيطة هي السريانية. وقد وجه اهتمام خاص نحو مؤلفات ارسطو ونحو مؤلفات شارحيه حيث ماترجم منها الى العربية يفوق ماترجم الى اللغات الاوروبية، ونحو مؤلفات رياضية وفلكية مثل مؤلفات اقليدس وارخميدس وبطليموس .. والواقع أن اللغة العربية اليوم هي مصدر معرفة هام للفلسفة والعلم اليونانيين ولاسيما بالنسبة للفترة المتأخرة ويعود هذا لكثرة عدد النصوص التي ترجمت وحفظت ولارتفاع مستوى كثير من الترجمات هذه. ان نقل علم العالم القديم للمسلمين بواسطة اللغة العربية يعتبر من الناحية الكمية والتنوعية معا من أكثر الظواهر

اثارة للدهشة في التاريخ الثقافي لأن هذا النقل لم يكن عاملا في ايجاد العلوم والفلسفة الاسلامية فحسب وانما لعب ايضا وبشكل غير مباشر دورا حيويا في خلق علم وفلسفة الغرب في العصور الوسطى وفي عصر النهضة، بل انه اثر أيضا في الصين والهند» (ص ٦٤٠).

ويتحدث مونتغمري واط عن هذه الحركة الى أن يقول في معرض حديثه عن الاعمال التي ترجمها حنين بن اسحاق (٨٠٩ - ٨٧٣) «ولعل بعض هذه الاعمال من انتاج فريق لا من انتاج حنين نفسه. وقد وصلت الترجمة بعمل هذا الفريق الى ذروتها فنيا ولغويا، لأن حنين كان يعرف قيمة مقارنة المخطوطات بعضها ببعض قبل أن يشرع في الترجمة أو في التنقيح، وكان من الصعاب التي واجهها المترجمون خلال القرن التاسع قلة ما هو مكتوب باللغة العربية عن هذه الموضوعات التي تتناولها الكتب التي يترجمونها. على أنه بالتدريج ومع ظهور كتابات عربية مستقلة في العلوم وفي المنطق وفيما وراء الطبيعة تم تطوير لغة فنية، وصار عندئذ من الممكن مراجعة الترجمات السابقة الى أن أصبحت متونها اعظم دقة وصحة.»

The Influence of Islam on Medieval Europe
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وينقل بطرس البستاني في مقدمة ترجمته لالباذة هوميروس التي صدرت في عام ١٩٠٣ عن البهاء العاملي صاحب الكشكول الذي ينقل بدوره عن الصلاح الصفدي (١٢٩٦ - ١٣٦٢ م) صاحب «الوافي بالوفيات» عن منهج العرب في الترجمة فيقول:

«وللترجمة في النقل طريقان، أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى، فيأتي الناقل بلفظ مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها، وينتقل الى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه.

« وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها . والثاني أن خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تتطابق نظيرها من لغة أخرى دائما ، وأيضا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .

« الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها وسواء ساوت الالفاظ أم خالفها . وهذا الطريق أجود ، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيما بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عربيه لم يحتج الى اصلاح » . (ص ٧٥-٧٦) .

وعلق بطرس البستاني على قول الصلاح الصفدي فيقول :

« وفي هذين الطريقين اللذين أشار اليهما الصلاح الصفدي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعمول عليهما في النقل حتى يومنا وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح » (ص ٧٦) .

وأريد بعد هذه الاقتباسات أن استخلص منها مايلي :

أولا : استطاع أجدادنا أن يطوعوا لغتنا لكي تصبح لغة حضارة عالمية دامت عدة قرون . وقد ضرب الاستاذ الباحث في بحثه الثاني أمثلة كثيرة على وسائل وضع المصطلح في العربية عن طريق الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب .

ثانيا : كانت لديهم أولويات فيما يختارونه للترجمة وقد ركزوا على العلوم والفلسفة باعتبارها الأكثر نفعا لهم .

ثالثا : كانت بعض الترجمات تتم بجهد جماعي .

رابعاً : كان هناك منهج للترجمة .

كان ذلك حالنا في الماضي فكيف حالنا اليوم ؟

في عام ١٩١٩ كتب طه الهاشمي في مذكراته يقول : « لو أرادت الأمة العربية الرقي فلا يصعب عليها أن تؤلف لجنة ترجمة ممن لهم اطلاع ورسوخ في اللغات الأجنبية وفي العربية . فلتأخذ بترجمة هذه الآثار من غير مجارة ولا تفريق » .

وفي عام ١٩٤٨ تضمن تقرير الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية مايلي :

« مما ترمي اليه المعاهدة الثقافية توحيد جهود الدول العربية في الاستفادة من نتاج الفكر العالمي والسير في ركب الحضارة ، فوجدت أن أول ماتحسنن المبادرة اليه هو تنظيم الاستفادة من المؤلفات التي أنتجها الفكر العالمي ، ووضعت ثمراتها قرائح الكتاب والعلماء والمفكرين . وقد وجدت أن عددا من أهميات الكتب العالمية قد ترجمت الى اللغة العربية ، ولكن عددا كبيرا منها لم يترجم ، وأن جهودا كبيرة يجب أن تبذل في هذا السبيل » .

ترى لو أننا أرخنا ماكتبه المرحوم طه الهاشمي بعام ١٩٨٢ ، وما جاء في تقرير الادارة الثقافية في عام ١٩٤٨ بعام ١٩٨٢ ، هل ننكر ذلك !! وأين نحن من كل تلك التمنيات ؟

ان بوسعنا أن نسجل مايلي حول واقع الكتاب المترجم :

١ - يمكن القول بشكل عام ان عدد مايصدر من كتب مترجمة ضئيل جدا اذا ماقورن باعداد الكتب المترجمة التي تصدر في كثير من البلدان ، ونظرة واحدة الى فهرس الترجمة السنوي الذي تصدره اليونسكو كافية لاثبات ذلك .

٢ — ان معظم ما يترجم وتنشره دور النشر الخاصة لا يخدم سوى مصلحة الناشر الخاصة في تحقيق مكسب مادي ولا يستهدف مصلحة القارئ العربي الحقيقية ، وسوء الاختيار واضح فيه ، وسرعة الترجمة .

٣ — نسبة الكتب الأدبية في كل ما ينشر من كتب مترجمة هي النسبة الكبيرة ، وحظ الكتب العلمية ضئيل .

٤ — الترجمة كثيرا ما تجيء مفتقرة للدقة العلمية والأمانة وفهم النص والنقل عن اللغة الاجنبية مباشرة .

٥ — تتأخر ترجمة الكتب العلمية ويتأخر نشرها مما يجعل القارئ المتبع للتأخرات العلمية يشعر أن هذه الكتب المترجمة قد أصبحت معلوماتها ومادتها قديمة .

٦ — هناك احجام عن ترجمة الكتب المؤلفة من عدة أجزاء .

٧ — ليس حظ الكتاب المترجم بأفضل من حظ الكتاب المؤلف من حيث جودة النشر وسهولة التوزيع واتساع الانتشار وحرية التداول .

٨ — ان بعض ما تنشره المؤسسات الأجنبية يهدف الى تحقيق غايات وأهداف الدول التي تمتلك هذه المؤسسات وهي لاتخدم على الاطلاق الغايات التي نسعى اليها .

٩ — اضطراب المصطلحات ، وعدم الاتفاق على مصطلحات واحدة يلتزم بها جميع المترجمين (الامتياز الباحث على سبيل المثال يستخدم مصطلحي الصدور والكواسع ترجمة لكلمتي Suffix — Prefix بينما هناك ترجمة شائعة لهما هي السوابق واللاحق — انظر بحثه المنشور في المجلة العربية للثقافة صفحة ٢٠٩) .

و يورد كل من يتصدر لمشكلة الترجمة الى اللغة العربية عادة حولا لهذه المشكلة ، وهذا مافعله على سبيل المثال الدكتور بسام طيبي في مقاله

« حول حركة الترجمة الأعمال العلمية والأدبية من اللغات الأوروبية الى العربية ودورها في التاريخ العربي الحديث » المنشور في العدد السابع من مجلة شؤون عربية، ومافعله الدكتور محمد عوض محمد في محاضراته التي القاها في معهد البحوث والدراسات العربية ونشرت في عام ١٩٦٩، ولكن الحلول التي قدمها الأستاذ الباحث أكثر تفصيلا واحاطة منها مايتصل بايجاد مؤسسات للترجمة قطريا وقوميا، ومنها مايتصل باساليب العمل واعداد المترجمين وتشجيعهم وانشاء مدارس للترجمة، ومنها مايتصل بدور البلاد العربية والمنظمة العربية في توثيق ماينشر من كتب مترجمة والاعلام عنه والتنسيق بين الجهود المبدولة، ومنها مايتصل بضرورة تعريب التعليم في جميع مراحله، وهذه مشكلة أثارت بالأمس وأرى أن أبلغ رد عليها ماقاله الأستاذ عبدالكريم غلاب في « ندوة التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية » التي عقدت في تونس في نوفمبر من العام الماضي حيث يقول :

« مشكلة التعريب ليست قضية أكاديمية أو مجتمعية أو قاموسية رغم أهمية تعريب المصطلحات وإثراء العربية بالكلمات التي تعتبر عن المفاهيم الحديثة، علمية وصناعية وتقنية، وانما هي مشكلة وضع العربية في المكان الذي يتطلبه مقامها كلفة لأمة واحدة، لاثارتها فيه لغة أخرى ... ان التحرر الفكري عن طريق تحرر اللغة هو جزء مهم من التحرر الوطني والقومي، وسبيل من سبل تحقيق الوحدة العربية » (كتاب التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية - بيروت - عام ١٩٨٢ ص ١٦٧).